جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

جدلية الزهد
في حياة أبي العتاهية و شعره
بين وعي المبدع و الاتجاه النقدي

الدكتورة
إخلاص عبد اللطيف علي الدول
أستاذ الأدب والنقد - جامعة الملك خالد
كلية العلوم والآداب بسراة عبيدة

العدد الثالث والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م
الجزء السادس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٩م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

(شكر وتقدير)

(الباحثة تود شكر

جامعة الملك خالد

على الدعم الإداري والفني

لهذا البحث)

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

جدلية الزهد في حياة أبي العتاهية و شعره بين وعي المبدع و الاتجاه النقدي

على الرغم من كثرة الروايات التي تتهم الشاعر أبي العتاهية بالزندقة والدهرية وتطعن في معتقده وتصفه بالبخل إلا انه لا يمكن قبولها على علاتها ، وقد أثبت الدرس والتمحيص لهذه الإخبار بطلان كثير منها خاصة تلك التي تحاول تشويه إسلاميته ، وهذا لا ينفي تأثره بشعاعات الثقافات السائدة آنذاك ولكن بقدر لا يخرجه من دائرة الإسلام .والأمر الثاني الذي يثبت صدقه في زهده هو التزامه بما يدعو إليه من العفاف في الكسب والكفاف في العيش ويتضح لنا انه كان يحاول التخلص من شهوات النفس ، أحيانا يحاول فيفلح في التغلب عليها وأخرى تغلبه فترديه في مهالك الحرص والجشع والتعلق بزينة الحياة . وبعد التعرف عل طبيعة زهده وبواعثه جاء الفصل الثاني من البحث ليتناول أيضا مبحثين : الأول عن الزهد ومسلك أبو العتاهية ثم رسالته التي أراد أن يوصلها إلى سامعيه وقراء شعره وقد تركزت هذه الرسالة في جانبين

* جانب أخلاقي تربوي يدعو فيه إلى الفضائل والأخلاق السوية ويضع أسس التعامل بين أفراد المجتمع فكان في هذا الجانب ذا رؤية اجتماعية متقدمة تنم عن وعي بأسس الاجتماع الإنساني.

* جانب ديني إذ أنه التزم بالدعوة إلى عبادة الله وطأته واجتناب نواهيه. ثم كان المبحث الثاني من الفصل الثاني للحديث عن أراء النقاد

حول شخصية وحياة وشعر إسماعيل بن القاسم الزهدي وليس من شك في أن أبا العتاهية شاعر ذو طبع فياض وشاعرية متدفقة، وقد برز في الزهد وأجاد. وقد رأت الباحثة أن هناك بعض الملاحظ الجديرة بالإثبات والتدوين وهي كما يلي :

إن مفهومه للزهد يؤسس على التهوين من شأن الحياة وتقبيح مفاتنها والتنكر لزخارفها وزينتها ، كما يقوم على أسس القناعة بان القليل من العيش الحلال خير من متع الدنيا جميعا وأن يكون الزهد عن إيمان بأنه خير منهاج لحياة كريمة، لا عن فقد وقصور. أما الخلوة فقد اتخذها مبدأ زهدياَ .

* من الحقائق التي يمكن استخلاصها من شعر أبي العتاهية أن محور زهدياته بالرغم من كثرة أشعاره مبني على فكرتين أساسيتين هما :

* الإنسان حياته ومصيره

** مفاتن الدنيا وزوالها

الكلمات المفتاحية : اتجاه؛ زهد؛ شعر؛ أبو العتاهية؛ مبدع؛ نقد.

✍ الدكتورة

إخلاص عبد اللطيف علي الدول

أستاذ الأدب والنقد - جامعة الملك خالد

كلية العلوم والآداب بسراة عبيدة

Email : iaaldowl@kku.edu.sa

Summary

Dialectic of asceticism in the life of my father's old and his hair Between the consciousness of the creator and the critical direction

In spite of the many accounts that accuse the poet -Abu al-Ataheh- of heresy and Dirhams and challenge his belief and describing it stingy ،but it cannot be accepted on the basis ،has proved the lesson and scrutiny of this news contraindicated many of them ،especially those trying to distort his Islamism ، and this does not negate the impact of the rays of the cultures of the prevailing then ،but not far out The second thing that proves his sincerity in his asceticism is his commitment to what he calls for from the chastity of earning and subsistence in living and it becomes clear to us that he was trying to get rid of the lusts of the soul ،sometimes he tries to overcome it and the other overtakes him in the diligence of greed ،greed and attachment to the decorations of life. After learning about the nature of his asceticism and his motives ،the second chapter of the research also deals with two topics: the first on asceticism and the behavior of Abu al-Ataheh ،and then his message that he wanted to deliver to his listeners and readers of his poetry.

*** An ethical and educational aspect that calls for the virtues and ethics and lay the foundations of interaction between members of society was in this aspect with an advanced social vision reflects the consciousness of the foundations of human society.**

*** Religious side as he committed to call to worship God and set foot and avoid his intentions.**

Then was the second section of the second chapter to talk about the opinions of critics about the personality ،life and poetry of Ismail bin Qasim ascetical and there is no doubt in the old Nappa poet printed Fayyad and poetic flowing ،has emerged in asceticism and shred. The researcher considered that there are some observations worthy of proof and codification are as follows:

*** The concept of asceticism is based mainly on underestimating the life of the world and the ugliness of its charms and disguise of its decorations and decorations ،as well as on the basis of the conviction that a little halal living is better than the pleasures of all the world and that the asceticism on the belief that it is the best platform for a decent life ،not about the loss and shortcomings of being alone He took it ascetical.**

*** One of the facts that can be drawn from the poetry of Abu Atahia that the axis of ascetics ،despite the many poems based on two basic ideas are:**

*** Human life and destiny**

**** Charms of the world and its demise.**

Keywords: Direction; Asceticism; Abu Ataheya; creator; Criticism.

Dr.
Ikhlas Abdul Latif Ali states
Professor of literature and criticism -
King Khalid University
College of Science and Arts in Sarat Ubaidah
Email: iaaldowl@kku.edu.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن فن الشعر فن جميل تبهج النفس محاسنه كما تسترعي البصر محاسنه وتشنف الآذان سلاسة التعبير ' لذا وقع اختياري بعون الله على موضوع يتعلق بالشعر، حيث يتناول موضوع بحثي

(جدلية الزهد في حياة أبي العتاهية و شعره بين وعي المبدع والاتجاه النقدي) والذي ساقه في كلمات بسيطة يفهمها كل من يطلع عليها وإن تدنى علمه في صورة قلما توجد في الشعر في ذلك العصر(عصر بني العباس). لقد شهدت بواكير العصر العباسي نبوغ عدد وفير من الشعراء المبدعين اللذين اتسمت أشعارهم بملامح الجدة وانطوت على رواء الحداثة ولعل أبرز انعطاف طرأ على الشعر العربي في عصر بني العباس هو انبثاق غرضين جديدين أضيفا إلى سائر الأغراض المعهودة في الشعر العربي وهما غرض المجون واللهو وغرض الزهد والمجون . انطوى المجتمع الإسلامي في عصر بني العباس على كثير من التعقيد ، وعرض له كثير من الاختلال وكان ذلك كله بسبب التبدل الذي أصاب الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية. وطبيعي داخل ذلك المجتمع الحافل الذي كان يضطرب بتيارات شتى أن تتعدد النزعات ، وتتعارض الاتجاهات ولم يكن بوسع مجتمع عميق الجذور ورث القيم العربية وتشبع بالروح الإسلامية أن يتقبل الزيغ والانحراف ويرتضي الطيش والمروق و لقد هال الأتقياء وذوي الغيرة على الدين والأخلاق ما تعرض له ذلك الجيل من غزو لأفكاره ومعتقداته وفساد في قيمه وسجاياه ورأوا أن خير سبيل إلى النجاة من تلك الشرور العودة إلى جوهر الدين والتمسك بحبل الله المتين، وهكذا اشتد تيار الزهد والتقشف في مقابل نزوع

الآخرين إلى المجون والتحلل . وقد غالى بعض هؤلاء في التضييق على أنفسهم غلو أولئك في تحللهم واستهتارهم فدأبوا على الوعظ والتعبد وحضوا على حياة النسك ونبذ حطام الدنيا.

يُعد الشاعر أبو العتاهية الذي عاش في صدر العصر العباسي ممثل تيار الزهد في الشعر العربي ، حيث أكثر من نظم قصائد الزهديات وبرع فيها ، حتى أنه جعل من ذلك الشعر غرضا جديدا انضم إلى سائر الأغراض المعهودة . وهو الأديب الشاعر البسيط في صياغته أبو إسحق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء ، العارف المشهور والشاعر المشهور المعروف في زهدياته بالنزاهة والرفاهية ، المكنى بأبي العتاهية وهو في الزهد والمواعظ والأمثال أشهر من نار على علم ، كما صح عند أهل العلم والأدب والحكم والأخبار ورواة الأشعار فصنفوه واختاروه وأبقوه وذكروه ، وهو يخاطب أهل العقل والدين والتقوى فيحثهم على الزهد في الدنيا ويذكرهم بما بعد الموت وما فيه من موعظة وتذكرة بالغة راسية ، عسى أن تلين بها القلوب القاسية وما أحوجها إلى ذلك مع غفلتها عما يُراد منها وقسوتها واشتغالها عما خُلقت له و إليه مصيرها .

لقد حملني على دراسة حياة وشعر أبي العتاهية واختصاصه دون غيره من الإعلام والشعراء الفحول ما يلي من أسباب :-

* كثرة ما في شعره من ذكر التقوى وما يُزهد في الدنيا ويرغب في الأخرى ، وفيه أيضا ضروب من الحكم قد احتوى عليها نظمه السهل ولفظه المميز العذب .

* أن الكثيرين يجهلون شاعر الزهد الفذ المتفرد بشعره الذي يشهد له أهل الشعر والفقه في زمانه بأنه شاعر عصره ببساطته وسهولة معانيه وطبيعيته .

* ما وجدته من اختلاف وتضارب حول حقيقة تزهده فلا يزال زهد أبي العتاهية منذ أيام الشاعر ، إلى يومنا هذا مصدر ريبة وشك ، تضاربت حوله الآراء متناقضة بين قائل أنه مصنوع مفتعل لا تدل ظواهره على واقع داخلي حقيقي ، و قائل أنه خالص صادق لا يشوبه رياء ، وفي سيرة أبي العتاهية وشعره ، ما يؤيد الطرفين على السواء ن فقد رُوي أنه كان يلبس المسح ويُحيي بعض الليالي للصلاة وقد انقطع عن الغزل منذ تزهد فلم يعد إليه مع ما كان يجد من تشجيع عليه ومن مضايقة أحيانا في هجره ، ولكنه مع ذلك كان أحيانا أخرى لا يبالي بشعائر الدين ويتهافت على حطام الدنيا بجشع ونهم ولم يكف حتى مماته عن طلب المال الذي كان شحيحا به إلى حد الإفراط ولم يدع فرصة تفلت من غير أن يستدرها مُصرحا بالاستجداء غير واجد بأساَ . لذلك كله كان لا بُد من أن تتجه دراستي صوب شعر إسماعيل بن القاسم الزهدي لنبحث بين ثنايا زهدياته عن الرأي الأرجح الذي يُمكن استخلاصه من هذا التناقض والتباين في وجهات النظر حول حقيقة زهده .وقد رأيت أن أتناول هذه الدراسة من خلال خطة التمست فيها إمكانية الوفاء بمتطلباتها ، وتحقيق الهدف المرجو منها وهي كما يلي :-

الفصل الأول : قمت بتقسيمه إلى مبحثين

المبحث الأول : عصره و حياته وشخصيته ومذهبه ووفاته .

المبحث الثاني :- ونبحث فيه البواعث التي دفعته للتزهد.

الفصل الثاني :- أشتمل أيضا على مبحثين

المبحث الأول : الزهد ومسلك أبي العتاهية ، ورسالته التي أراد أن يوصلها إلى سامعيه وقرائه

المبحث الثاني : أراء النقاد حول شعره الزهدي .

الخاتمة : وتحوي ملخصاً مبسطاً للموضوع وما توصلت إليه الدارسة من نتائج مع إبداء بعض الآراء والمقترحات. تلا ذلك قائمة المصادر والمراجع وفهرس للموضوعات الواردة في الدراسة.

وقد اعتمدت الباحثة على مجموعة من المصادر منها مصادر أساسية أكثرت من الاتكال عليها وأخرى ثانوية لجأت إليها بين الفينة والفينة وقد تم رصدها جميعها في هوامش الدراسة ثم أفردت لها صفحات مفصلة في نهاية الدراسة .

وختاما أرجو أن أكون قد وفقت في جمع المادة وسردها وتحليلها ونقدها بالقدر الذي يفيد وكما ينبغي ويجب ، ويقيني أنه جهد المُقل .

وما التوفيق إلا من عند الله وهو نعم المولى ونعم النصير (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيما) [١]

(١) سورة البقرة آية (٣٢)

الفصل الأول

* المبحث الأول :حديث عن عصره و حياته وشخصيته ومذهبه ووفاته

ولد أبو العتاهية في بداية عصر العباسيين حيث تولى عرش الخلافة في هذا العصر من بني العباس خلفاء دانت لهم الدنيا ، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة وحضارات قديمة .(يمكننا القول أن عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعد.) [١] و لقد نشأت الدولة العباسية نتيجة صراع دام طويل بين العرب والموالي ، وكانت الغلبة فيه للموالي ، ولكن السلطة ظلت بيد العرب ، وظل الصراع حولها قائما لا يفتر ولا يكل ، ولا يهدأ إلى أن بلغ مداه في انحلال الإمبراطورية وتشتت أقطارها ، وتفرق ولاتها ، واستقلال كل وال بالبلاد التي يحكمها ، وافتقاد رأس الدولة – الخليفة – كل سلطة فعلية وسقوط بغداد أخيراُ في أيدي المغول. [٢]

وأبو العتاهية نشأ في الدور الأول من الدولة العباسية وشهد هذا البلاء الذي كان يعانيه المجتمع العراقي في تنازع الأهواء ، وتفرق الآراء ، واحتدام الخلافات الكثيرة بين الطامحين إلى الحكم، والساعين وراء الثروة في مجتمع تخاذل أبناءه ، وعنفت أهواءه، وتعددت فئاته ن وكثرت

---

(١) أحمد حسن الزيات – تاريخ الأدب العربي – القاهرة ، دار النهضة المصرية – ط١٩٦٣م – ص٣١٠

(٢) عبد اللطيف شرارة– أبو العتاهية شاعر الزهد والحب الخائب– دار الشرق – بيروت – ١٩٦٢م– ص١٣٩

اتجاهاته، فلم يبق فيه من يامن على حياته أو يطمئن إلى غده[١] وتنوعت الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ومجون وكانت البلاد معرضا للنحل ومجالا لدعايات الجماعات السرية وأصحاب المذاهب ، اللذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية. وكانت بغداد مستقرا لأصحاب الثراء وجحيما لا يُطاق للفقراء وذوي الحاجة لشدة البؤس والشقاء وضيق العيش فيها ويصور أبو العتاهية الذي نشأ في بيئة فقيرة معدمة وعانى الأمرين من سوء الأوضاع في بغداد تصويرا رائعاَ.

من مبلغ عني الإمام نصائحاَ متواليـــة
إني أرى الأســـعار أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشية
وأرى هموم الدهر را ئحة تمر وغـــادية
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العارية

ويمكننا أن نجمل القول في أن الحياة الاجتماعية لم تكن على شئ من الدعة والهدوء ، فان الركض وراء القصف والمجون والإشادة بالخمر وفضلها على الناس مما لم يعرفه عصر ولا بيئة على نحو ما ظهر في مجتمعات العراق آنئذ . وذلك الإغراق في التظاهر بالفسق وتحدي قواعد الأخلاق والدين كلها علامات اضطراب اجتماعي بعيد الغور يستحيل معه على المرء أن يستقر على حال ، بالغا ما بلغ من الرجاحة والقوة .وقد كانت حياة الشعراء والأدباء أحفل الحيوات بهذا الاضطراب فكان مطيع بن إياس

(١) مصطفى الدش – أبو العتاهية حياته وشعره – القاهرة ، دار الكتاب العربي – ١٩٦٨م – ص١٨

تلميذ الوليد بن يزيد الأموي ، يمثل بأصدقائه وحياته وإشعاره وسيرته ، الجو الاجتماعي الذي نشأ فيه أبو العتاهية والبيئة الفكرية التي لم يستطع هذا أن يتخلص من تأثيرها في نفسه إلا بعد زمن طويل وتجارب قاسية ومريرة.(١)

وكان ظهور أدب الزهد رد فعل طبيعي للحياة الماجنة الفاسقة التي انغمس فيه المجتمع العباسي إلى أخمص قدميه ونشأ بالتالي لون من الأدب الماجن الفاسق . وابرز من ظهر في هذا اللون شاعرنا أبو العتاهية الذي لُقب بشاعر الزهد لغلبة هذا اللون من الأدب على شعره الذي يدور في مجمله حول موضوع واحد هو(الزهد) والتذمر من الدنيا وأحوالها والتبرم بالناس وأخلاقهم، والتشنيع عليهم ، والتحدث عن الموت ، وبذا نجد أن أبا العتاهية قد خالف شعراء عصره، أو هو تميز عليهم بإلحاحه في تذكر الموت ومواجهته لدى كل حادثة ومناسبة ، وجر الناس إلى عدم نسيانه حتى في ساعات ابتهاجهم وأوقات فرحهم ولحظات انشراحهم وسرورهم، وكان في موقفه هذا يصدر عن مزاج خاص ، تكون مع الأيام على يد تجارب خاصة وفي إطار حضارة خاصة وسيرته في الحقيقة إنما هي قصة تلك الحضارة ، ومجموعة هاتيك التجارب، وعرض لذلك المزاج(٢) وبعد كل الذي سقناه سابقا كان لابد لنا من وقفة نعرض فيها بشئ من الإيجاز لمولد إسماعيل بن القاسم ونشأته وسمته وأوصافه وشخصيته وأخلاقه وصفاته ومذهبه ووفاته.

---

(١) عبد اللطيف شرارة – مرجع سابق – ص٤٦

(٢) محمد جابر عبد العال – حركات الشيعة المتطرفين – دار المعارف، القاهرة – ط٢ – ١٩٦٧م – ص ١٥٧

*** اسمه و مولده** :-

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ، ينتسب إلى قبيلة عنزة بالولاء وكنيته أبو إسحق وأمه أم زيد بنت زياد المحاربي مولى بني زهرة[١]. ولد الشاعر لأبوين فقيرين ، ولما اشتدت ظروف الحياة بأسرته واشتكت ألام الفقر، قرر الأب الرحيل من (عين التمر) مسقط رأسه إلى الكوفة، لعله يجد بها فرجا لضيقه ومخرجا لهمه .كانت مهنة والده الحجامة وكانت مهنة محتقرة بمقاييس عصره فاضطر أبي العتاهية وهو المتقدم على عصره إلى أن يرد العار المزعوم بقوله :-

ألا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الفقر والعدم

وليس على عبد تقي نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

ولكن العصر ومقاييسه كانت أقوى من الشاعر فالتصقت به ضعة النسب كما التصق اللقب .

وهناك أمران لم يوضحها مؤرخوه تمام الإيضاح وهما نسبه وزندقته فقد ذكر بعض المؤرخين وتبعهم المستشرقان (نكلسون) و(هوار) أن أبا العتاهية عربي الأصل[٢] . و إذا رجعنا إلى ما أورده الأصفهاني وأبن خلكان ومن نقل عنهما رأيتهم يتفقون على نسبه إلى عنزة بالولاء ، ولعل في اسم

---

(١) انظر القاضي أحمد بن خلكان – وفيات الأعيان – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ، مكتبة النهضة – ١٩٤٨م ج١– ص٢٠٠ . وانظر البغدادي – تاريخ بغداد– القاهرة ، مكتبة الخانجي – ١٩٣١م – ج٦– ص ٢٥.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني– الأغاني– دار إحياء التراث العربي، بيروت–ج٤ –ص ١و فؤاد البستاني– أبو العتاهية – سلسلة الروائع– ط١٩٥٩م وحنا الفاخوري– تاريخ الأدب العربي– المكتبة البوليسية – بيروت–ص٣٧

بلدته التي ولد فيها ما حداهم إلى ذلك القول فقد ولد في (عين التمر) وهي على ما ذكروا بلدة في الحجاز والحقيقة إن في العراق بلـدة تُعـرف بهـذا الاسم .والأصح أن تكون هي مسقط رأس الشاعر، فانه نشأ فـي الكوفـة وعين التمر وكلاهما من سقي الفرات ، ومما يؤيد صـحة هـذا القـول أن بعضهم كان يتهمه بالزندقة ولم يكن يُتهم بها عادة إلا الذين يمتون بنسـب إلى الفرس ولم يكن أبو العتاهية شديد التمسك بنسبه فكان طوال حياة يزيد ابن منصور الحميري يدعي أنه مولى لليمن وينتفي من عنزة ، فلما مـات يزيد رجع إلى ولائه الأول وما ذلك فعل من ينتسب نسباَ صريحاَ إلى العرب كانت عادة عند العرب القحاح وليست قانونا...يعمد الذمي إلى تغيير اسـمه أو تعريفه وإبدال اسم عائلته باسم قبيلة من القبائل العربية وهو ما يُسـمى الانتساب بالولاء.[١] على أن أبا العتاهية لم يكن يتمسك بهذا المـوروث إلا عند الحاجة كما صرح هو بذلك قائلاَ : (ذلك شئ احتجنا إليـه فـي ذلـك الزمان ، وما في واحد ممن انتميت إليه خير، ولكن الحق أحـق أن يُتبـع) وهو يقصد انتمائه إلى اليمن بعد انتمائه لعنزة[٢]، ثم نراه وفقا لوصفه ينتقل في ولاءاته من حي إلى حي ومن قبيلة إلى قبيلة فهاهو يعلن ولاءه للخميين حيث يرى من بينهم من يرعاه ويدرءا عنه أذى الهجائيين المفتـرين ثـم يعود إلى اليمانية أيام المهدي لأن أخوال الخليفة منها ومن هؤلاء الأخـوال

---

(١) الأصفهاني – الأغاني – ج٣ – ص١٢ وراجع ابن خلكـان – وفيـات الأعيـان – ج١ – ص٢٠٠.

(٢) ابن قتيبة – الشعر والشعراء – تحقيق أحمد محمد شاكر – القـاهرة ، دار المعـارف – ١٩٦٧م – ج٢ – ص٧٩١ . ابن المعتز – تحقيق عبد السـتار فـراج – القـاهرة ، دار المعارف – ١٩٥٦م . القرطبي – مقدمة الديوان – تحقيق د. شكري فيصل – دمشق ، دار الفلاح للطباعة والنشر – ١٩٦٤م – ص ٣٤.

يزيد بن منصور الذي كان يحب أبا العتاهية ويقربه حتى إذا مات يزيد انقلب إلى ولائه الأول ، وهكذا فمن عنزية إلى يمانية إلى لخمية إلى ...كل ذلك بدافع وضعه الدقيق وإحساسه العميق بأنه دون علية القوم ودون الحاكمين مكاناَ ونسباَ ، إلا أنه أفضل منهم شاعرية وإن عدته في تسلق الشهرة أوفر وأدعى إلى تحقيق النصر من عدتهم وعديدهم ، ومن هنا نشأ الصراع النفسي عنده، ولم يكن حادا ! إذ بداء لهم بالهجاء حينا وبالملاينة حينا أخر.

شخصيته :- *

لم تكن شخصية أبي العتاهية على شئ من التماسك والانسجام ، ولم يستطع بسبب من هذا (التفكك) في نواحي شخصيته وتناقض مظاهرها ، أن يفرض نفسه على معاصريه في جانب أو قضية ، حتى إذا تقادم عليه الزمن، واستغرق في يأسه واستولت عليه فكرة (الخيبة) كان كل ما حفظ الناس عنه أنه شاعر الزهد . وحقيقة الأمر أنه لم يكن زاهد[١]

لماذا أبو العتاهية ؟ *

هذا اللقب الذي لصق به لم يكن جزافا ، ولا عبثا ، ومرده الحقيقي إلى سلوكه بعد أن شب وعُرف ، وأصبح يحتك بالناس من حوله ، وأصبح الناس يحتكون به ، العتاهية صفة لغوية للعته (البلاهة الناشئة عن انحراف عقلي) وشأنها اللغوي هو شأن بعض الكلمات الشائعة كالرفاهية والكراهية وما أشبه . جاء في (الأغاني) : (أبو العتاهية لقب غلب على اسمه إسماعيل بن القاسم بن كيسان مولى عنزة ، وكنيته أبو اسحق ، وأمه أم

(١) الأصفهاني – الأغاني ـ ج٤ – ص١٢١٧ . ابن منظور المصري – لسان العرب – القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مجلد ١٧ – ص٤٠٨ ، مادة عته .

زيد بن زياد ألمحاربي مولى بني زهرة ، وفي ذلك يقول أبو قابوس النصراني وقد بلغه أن أبا العتاهية فضل عليه العتابي :

قل للمكني نفسه متخيراً بعتاهية والمرسل الكلم القبيح وعته أذن واعية

وقال المهدي يوما لأبي العتاهية : (أنت إنسان متحذلق معته) فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته .... وقال محمد بن يحي : كني بابي العتاهية أن كان يحب الشهرة والمجون والتعته[١]. وجاء في تاريخ بغداد : (أبو العتاهية لُقب به لاضطراب كان فيه . وقيل بل كان يحب المجون والخلاعة فكني لعتوه أبا العتاهية) [٢]وقد كان لصفاته الخلقية والخُلقية تأثير كبير على تكوين شخصيته وأخلاقيته فإذا استثنينا ضعف بنيته ورقة عظامه ، وشيئا من ترجحه بين الاهتزاز والاضطراب و الخفة تراه إنسانا موهوبا تميز بسمات متعددة ذات أصول موروثة . هي قدرات واستعدادات عقلية تشير بوضوح إلى القدرات الفنية الكامنة فيه. وهذا كله يعني التميز بذكاء خارق لا يُتاح في العادة إلا للموهوبين وذوي الشخصية الخلاقة . وينبغي أن نلاحظ أن الرهافة الحادة ذات عطاءات سلبية ومفاعيل هدامة يبرز معها صاحبها صراعيا متناقضا مع واقعه الاجتماعي والنظم السائدة ، لا سيما إذا كانت هذه من النوع السخيف المرفوض عقليا كاعتقاد الناس يومها بان كل من تعاطي عملا أو صنعة كان وضيعا مرزولا وان كل من لم يكن عربيا خالصا أو صريح النسب ا وان نسبه لا يرقى إلى كبار علية القوم وكبريات القبائل كان مذموما فكيف إذا كان مطعونا في دينه أو عقيدته ، إن مجرد الإحساس بهذا الواقع المؤلم وشدة وقعه على النفس

(١) الأصفهاني – مصدر سابق – ج٤ – ص ١٢١٦

(٢) تاريخ بغداد – للحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي – ج٦ – القاهرة – ١٩٣١م ص ٥١

يجعل من صاحبه إنسانا مغايراحتى إذا جاهر برفضه كان إنسانا متقدما تماما، كما يرى بشار و أبونواس وابن الرومي[١] وإسماعيل بن القاسم كما ذكرنا سابقا يضرب في أعراقه إلى جذور شعبية ، أي انه لم يكن ينتمي إلى أسرة ارستقراطية في العرب ، ولا إلى قبيلة ذات بأس وجاه ، ولا كان والديه من الأغنياء ، كان عربيا في أصوله ، ولكنه (مولى) في طبقته ونشأته ، وكان أبوه حجاما ، وقد مارس هو نفسه في حداثته صنع الجرار ، فذا اطراد غشيان مجلس قدم نفسه: (أبو اسحق الخزاف) وعندما شاع في الناس انه شاعر اعتذر عن جذوره الشعبية بقوله:

ألا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الفقر والعدم(٢)
وليس على عبد تقي نقيصة إذا صحح التقوى وان حاك او حجم

وكان لهذه الجذور الشعبية يد طولى في استهتاره بنفسه وتخليه في كثر من المواقف عن كرامته، لا سيما انه عاش في عصر التوت فيه المقاييس واضطربت القيم ، ولم يبق فيه للمرء من عاصم إلا أن ينتمي إلى أسرة نبيلة ، أو يتحصن بمظاهر النعمة والترف ، أو يتولى عملاَ في الدولة لقاء خدمة أو موهبة ، وهذه كلها لم يتيسر لأبي العتاهية شئ منها .

هذه النشأة الوضيعة أثرت في الشاعر ، وأسهمت في تكوين عقليته لناحية تفضيل التقوى على العز والرفعة ، والإشادة بالزهد وحسن الخلق على حساب شرف النسب وسمو الأصل[٣]وقد بدأ ذلك واضحا من اعتذاره عن مهنة والده كما مر سابقا .

---

(١)الأصبهاني – مصدر سابق – ص ٢٨٤-٣٥٦

(٢)الديوان ص ٤٣٨

(٣) مجيد طراد – ديوان أبي العتاهية – دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان – ٢٠٠٦م – ص

العربية الأصيلة ذات النمط الجاهلي ، فمال إلى اللفظ السهل المأنوس اللطيف القريب من الطبع وحين لمع نجمه في سماء الشعر ، انخرط في حلقات الشعراء الشباب اللاهيين ، فعاشر أهل الخلاعة والمجون فالتحق بمجلس والبة بن الحباب ، وأبي نواس وصريع الغواني وغيرهم من المتهتكين[١] وانتظم في سلك المخنثين اللذين تكاثروا قي الحواضر بفعل الموجات الحضارية الوافدة التي تحمل في ثناياها بزور التخنث والخلاعة والمجون إلى جانب الأفكار الجدلية والفلسفية وطرائق عيش لم تألفه الأجيال العربية فيما مضى . يقول صاحب الأغاني : (ومنشوه بالكوفة وكان أول أمره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين ثم انه يبيع الفخار بالكوفة ثم قال الشعر فبرع فيه وتقدم) [٢]وطبيعي ان يسرع هذا الفتى في الجنوح أكثر من غيره لما كان يعتمل في نفسه من شعور بالضياع وإحساس عميق بالدونية ،.كانا ينميان فيه كبتا كثيفا لم يجد معه بدأ من التنفيس عنه بالانزلاق في حمأة المجون من جهة وبتفجير ملكاته في إعمال تدميرية مثيرة كما يؤكد علماء النفس اليوم .وواضح أن انقلابا حدث في حياة أبي العتاهية فتحول مما كان يأخذ فيه مع شعراء بغداد لعصره من لهو ومجون إلى زهد الدنيا ومتاعها الزائل وكاد يقصر شعره على ذلك ولم يلبث معاصروه أن تسألوا هل هذا الزهد مرده إلى تقوى حقيقية أم مرده إلى زندقة ومانوية ؟ يقول ابن المعتز في ترجمته: (انه يُرمى بالزندقة مع كثرة أشعاره في الزهد والمواعظ

(١) راجع ابن الجراح – كتاب الورقة – تحقيق د. عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج – ط١ القاهرة ، دار المعارف – ١٩٥٣م – ص ١٠٨ – ١٠٩

(٢) الأصفهاني – الأغاني – ج٤ – ص ١٥٩

وذكر الموت والحشر والنار والجنة والذي يصح له أنه كان ثنوياً)[١] وعلى الجملة فالدارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذبا في نسبه وحبه وعلمه وعقيدته.[٢]

* **أخلاقه وصفاته** : كان أبو العتاهية مذبذب الرأي مفككا معتل العقيدة لإضرابه في الآراء وتلونه في النحل ، مقترا على نفسه وأهله مع وفرة ماله وحسن حاله ، مضطرب المزاج غريب الأخلاق [٣]قد يكون أبو العتاهية المثل الوحيد الذي يقدمه تاريخ الأدب العربي ، على انفصام الشخصية بين طورين من أطوارها .فإسماعيل الشاب العابث اللاهي المتزندق الذي لم يكن يبالي بشئ قبل ان يتعرف إلى عتبة ، غير ذلك الشاعر المتكسب الذي يتقرب من الخلفاء من اجل جارية ، وينال على يدهم الأذى والسجن والهوان والجلد ، بنسبة ما يحظى لديهم بالتقدير والهبات الجزيلة والإعجاب العظيم ، الأول فتى يفيض بالعافية ، ولا يرى الناس منه غير الذكاء والجنوح والعبث بالواقع، ومطاردة الذائد ، والثاني مضطرب قلق غامض العقيدة مشوش الذهن والروح الأول عاشق لا يعتم اخفق أو نجح والثاني عاشق رفضته التي عشقها فركن إلى الهم واليأس وانطوى من إخفاق حبه على جرح لم يندمل وعذاب لم ينقطع وكابت خانقة لا حد لها ولا نهاية انصرف معها إلى جمع المال والزراية على الناس وهجاء الفاضل والأراذل دون تميز فإذا حدَث لاحت في ثنايا أحاديثه بوارق الزندقة وإذا اتُهم دافع عن نفسه بالنفاق وإذا أصابه مكروه ضرع وذل وإذا خلا إلى

(١) ابن المعتز – طبقات الشعراء – ص ٢٨٦
(٢) أحمد حسن الزيات – تاريخ الأدب العربي – ص ٢٦٨- ٢٦٩ .
(٣) عبد اللطيف شرارة – أبو العتاهية – ص ٤١ – ٤٢

نفسه عاد إلى مجون شبابه وإذا التقى بالناس أمعن يعظهم بالتقوى ويدعوهم إلى الزهد ويذكرهم بالموت[١] وتجمع له من ذلك صيتان : الصيت الأول أنه (مذبذب في مذهبه يعتقد شيئا فإذا سمع طاعنا عليه ترك اعتقاده إياه واخذ غيره !) والصيت الثاني انه (معتوه) يستخف بنفسه فيحمل طورا (زاملة المخنثين) ويدور في الأزقة والشوارع ويجلس طورا يحجم اليتامى والفقراء وأبناء السبيل حتى إذا عوتب في ذلك قال : (أردت أن أضع من نفسي حسبما رفعتني الدنيا واضع منها ليسقط عتها الكبر واكتسب بما فعلته الثواب ! ....) وهو يعلم انه يقدم على عمل لا دراية له به وانه إنما يقدم عليه استدرارا لمال لا يحق له أخذه .

وأعجب مافي هذه الحركات التي كانت تصدر عن أبي العتاهية ، بعد تعلقه بعتبة أنه ظل على شاعريته الزاخرة الدافقة وقريحته الفياضة ، وظل شعره يُنبئ عن فكر صاف لا تشوبه شائبة من هسترية أو اضطراب. وانه توصل إلى أفاق ومعاني حازت إعجاب المعاصرين جميعهم ، ووقف إلى موضوعات لم يسبق لغيره من شعراء العربية أن طرقها ، أو حام حولها إلا في لفتات عابرة أو ومضات خاطفة . والحقيقة هي أن خلقه الأصيل كان قبل كل شئ خلق شاعر ، يحب الحياة ، ويزدهيه الحب ، ويأتلف مع الجمال ــ ويصبوا إلى المتعة ، ولكن ظروفه العامة والخاصة لم تدع له مجلا للفرح . بالحياة ، ولا سبيلا إلى الإقبال على الناس وقضت عليه أن يعشق فلا يلقى صدى في نفس التي عشقها وحملته حملا على سلوك طرائق تتنافى وحقيقته في كثير من الأحيان والحالات، فبدأ في الظاهر بخيلا وضيعا مذبذبا مضطربا كثير الشكوى، عديم الصبر و في جوهره غير ذلك.

---

(١) عبد اللطيف شرارة – مرجع سابق – ص ٤١ – ٤٣.

* **مذهبه** :

لم يختلف المؤرخون في شئ مثل اختلافهم في تقرير العقيدة التي كان يؤمن بها أبو العتاهية إذ روى صاحب (الأغاني) مختلف الروايات التي كان يتناقلها الناس عنه في هذا الشأن كما روى دفاعه عن نفسه ضد من اتهمه بالزندقة، فقال: (...كان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث، ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء، دون ذكر النشور والمعاد) وذكر في مقام آخر على لسان بعض المحدثين: (كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد ، وإن الله خلق جوهرين متضادين لا من شئ ، ثم أنه بني العالم هذه البنية منهما وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له إلا الله، وكان يزعم أن الله سيرد كل شئ إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعا .

وكان يذهب إلى أن المعارف واقفة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعا ، وكان يقول بالوعيد ، وبتحريم المكاسب ، ويتشيع بمذهب الزبدية البترية المبتدعة ، لا يتنقص أحدا ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان ، وكان مجبرا) [١]

وكأنه حاول بذلك أن يوفق بين نظرية الإسلام في التوحيد ونظرية المانوية في أن هناك الهين إلها للنور والخير والها للظلمة والشر وللخير أجناسه وللشر كذلك وقد بُني منها العالم ، ونجد في شعره القليل الذي وصلنا ما يؤكد أنه كان حقا يرى هذه النظرية ويعتقدها مثل قوله:

الخير والشر أزواج لذا نتاج ولذا نتاج

(١) الأصفهاني – الأغاني – ج١ – ص١ – ١١٢

لكل إنسان طبيعتان خير وشر وهما ضدان
والخير والشر إذا ما عدا بينهما بون بعيد جدا

وعلى هذا يكون أبو العتاهية قد أخذ بنصيب من الفلسفة الإسلامية أو التفلسف كما أخذ عن المانوية وهو الذي أمضى ثلاثين سنة من شبابه في الكوفة ثم الحيرة وأخيرا في بغداد عاصمة الفكر والثقافة والفقه والفن والشعر والفلسفة . (١) هذه الفلسفة التي بدأت تُنقل في عصر الشاعر أثناء حركة النقل الكبرى عن الفارسية واليونانية بواسطة تراجمه سريان وفرس لكثير من العلوم والمذاهب والفلسفات كما أنه أفاد من الحكمة وشعر الاعتبار اللذين نُقلا مع ما نقل من الهندية والفارسية واليونانية ومن مصادر أخرى غير إسلامية كالنصرانية والمانوية وقد اتضح ذلك في سلوكه وبعض أشعاره .قال هارون الرشيد يوما لأبي العتاهية : (الناس يزعمون أنك زنديق) فأجابه : (يا سيدي كيف أكون زنديقا وأنا القائل:

أيا عجبي كيف يعصى الإله أم كيف يجحده جاحد
ولله في كل تحريكه وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شئ له آية تدل على أنه واحد !

كانت تهمة الزندقة تنصب عليه ــ حسب الظاهر ــ لأنه كان يُكثر من ذكر الموت والعقاب على السلوك الفاسد بالموت ، دون أن يعرض للمعاد والبعث ، أو يتحدث في شئ عن الثواب الذي ينتظر المؤمن ، وتلك هي الحجة التي استند إليها منصور بن عمار يوم أشهد جلسائه أن أبا العتاهية

(١) شوقي ضيف – الفن ومذاهبه في الشعر العربي – القاهرة ، دار المعارف – الطبعة السابعة – ١٩٦٠م، ص ٧٨.

زنديق، ولكن الأخير دحض من بعد ذلك تلك الحجة أكثر من مرة، فكتب إلى منصور يعاتبه:

إن يوم الحساب يوم عسير ليس للظالمين فيه نصير
فأتخذ عدة لمطـــلع القبر وهول الصراط يا منصور!

مما حمل منصور بن عمار على التراجع ، والقول: (أشهدكم أن أبا العتاهية قد اعترف بالموت والبعث ؟ ومن اعترف بذلك فقد بُري مما قـــذف به ...)[١]

بيد أن الإشعار التي يدفع بها عن نفسه تهمة الزندقة ، أصبحت في أيامه الأخيرة خاصة ، أكثر من أن تُحصى وديوانه يعج عجيجا بالأقوال التي تجعله برياَ، على أن المهم في تلك التهمة التي وجهت اليه ، وشاعت عنـــه في بداية أمره ، ليس إثباتها أو نفيها من خلال إعماله ، والداعي الأساسي إلى انتشارها وشيوعها ، فقد اقتضى التحليل الذي قام به الـــدكتور شـــوقي ضيف إلى انه كان يؤمن بضرب من الثنوية[٢]ودليله على ذلك ما ورد فـــي أرجوزته الشهيرة (ذات الأمثال)

وما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشـــــر بها أزواج لذا نتاج ..... ولذا نتاج
لكـــل إنســـــان طبيعان خير وشر وهما .....ضدان

(١) الأصفهاني – الأغاني – ج٤ – ص ٢١٩
(٢) شوقي ضيف – الفن ومذاهبه في الشـــعر العربـــي – دار المعـــارف ، القـــاهرة – ط٤ – ١٩٦٠م ص ١٦٨

وهذه الثنوية رشحت إليه من الفرس ، أتباع ماني [١]وكانت هذه العقيدة فد لقيت أرضا خصبة في مطلع العهد العباسي ، وعمل الشعوبيون على نشرها ، وهي القائلة بالهين : واحد للنور والآخر للظلمة [٢]إما الإعمال التي كانت تدعو إلى الشك في صحة إيمانه ، فأبرزها حادثتان :

* الأولى أنه لبس مرة لباس راهب وادعى انه رغب في الإسلام على يدي امرأة ــ وكانت هذه المرأة محبوبته عتبة ــ وقد انتحل صفة الرهبانية ليحظى بمشاهدتها ويقبل يدها ، وكان له ما أراد .

* والثانية انه لبس كساء صوف ودراعة صوف وآلا على نفسه أن لا يقول شعرا في الغزل ، وكان ذلك بعد يأسه ومن عتبة ، وانقطع عن الناس واشتد سوء ظنه بهم لدرجة انه نصح من سأله كلمة يكتبها على خاتمه (لعنة الله على الناس) فذا أضفنا إلى هذه التصرفات نشوء عدوان بينه وبين عدد من الشعراء والكبراء أمثال سلم الخاسر ووالية بن الحباب من الأولين وعبد الله بن معن بن زائدة في الآخرين وأن الزندقة كانت (سلاحا) في أيدي المتخاصمين يشهرونه على بعضهم البعض في حياة ذلك المجتمع أدركنا الثغرة التي طُعن منها أبو العتاهية وعرفنا كيف شاعت عنه تلك التهمة . وهناك ، إلى ذلك كله حادثة تتصل بالسلطان نفسه ، فقد نظم أبو العتاهية قصيدة توجه بها آلى الخليفة يبين له فيها على نحو خفي ؟، سوء الحالة الاقتصادية واستياء الناس ، ويدعوه فيها إلى ملافاة هذه الأحوال ، والقضاء على أسبابها .

---

(١) المرجع السابق – ص ١٦٩

(٢) عبد اللطيف شرارة – أبو العتاهية – ص٧٨

من مبلغ عني الإمام نصائحاَ متوالية

إني أرى الأسعار أسعار الرعية غالية وارى المكاسب ندرة وارى الضرورة غاشية

إلى أن يقول :

من للبطون الجائعات وللجسوم العارية ألقيت أخبارا إليك من الرعية شافية!

لم يكن مثل هذا (التقرير) الذي رفعه أبو العتاهية إلى الخليفة المعني ! مما يجعل السلطة مطمئنة ، أو يحملها على إبلائه عين الرضا ، لا سيما أنه بدأه بالتهديد ، وذكر الفناء والدمار .

أين القرون الماضية تركوا المنازل خالية ؟

فاستبدلت بهم ديارهم الرياح الهاوية وتشتت عنها الجموع وفارقتها الغاشية

فإذا محل للوحوش وللكلاب العاوية درجوا فما أبقت صروف الدهر منهم باقية!

خلاصة القول أن اتهام أبي العتاهية في عقيدته الدينية يحمل طابعا سياسيا ، أكثر مما هو تعبير عن حقيقة ، أو هو إشارة إلى ارتياب في الشاعر من جهة ولائه للسلطة التي كانت قائمة ، لا في صحة إيمانه أو عدمه ، وذلك هو شأنه يوم حبسه المهدي قبل الرشيد.[١]وكانت للشاعر أراء مخالفة للمعتزلة مثل مسالة خلق القران فهو يرى الاشتغال بها لون من الطيش والجهل وهذا ناتج عن موقفه العدائي من المعتزلة اللذين بينهم وبينه عداء مذهبي[٢] وكأي شاعر كبير وجهت للرجل في حياته وبعد مماته

(١) عبد اللطيف شرارة – أبو العتاهية – ص٤٨ – ٤٩ .

(٢) خليل شرف الدين – أبو العتاهية– الموسوعة الأدبية الميسرة – الإصدره السابعة ص ١٨ – ١٩

جملة من التهم المختلفة التي تناسب ظروف العصر الذي عاش فيه ولعل أشد هذه التهم قسوة وإيلاما هو ما رماه به المشككون من تهم استهدفت عقيدته الدينية ، وهي تهم بُنيت على ملاحظات من حياته، وأقوال صدرت عنه وأشارت إليها مراجع الشعر المختلفة دون تحقيق أو تعليق سوءا بالتصديق أو التكذيب. و لا نعلم تحقيقا إن كان الرجل قد حقق الإيمان في قلبه أم لا فذلك في علم الله وحده ولكن سيرته لم تكن بأي حال من الأحوال سيرة الملحد الزنديق، أو المتشكك في دينه، بل كان على ما يُروى من شعره مذكرا بالله داعيا إلى مكارم الأخلاق وحسبنا منه هذه الدعوة دونما حاجة إلى تشكيك يفسد الحقيقة ولا يأتي باليقين.

* **وفاته** : اختلفت الروايات حول تاريخ وفاة أبي العتاهية فقد وردت خمس روايات لا تخرج في تحديدها عن الفترة مابين ٢٠٥ و٢١٣ هجرية فهناك رواية، ترجع تُنسب إلى ابنه محمد تقول انه توفي في سنة ٢١٠هـ [١]وروايات تذكر انه توفي سنة ٢٠٥هـ[٢]وينفرد بذكرها ابن قتيبة وأخرى ترجح أنها سنة ٢١١هـ وقد جاءت في كل من تاريخ الطبري[٣] والأغاني مع روايات أخرى[٤] و وفيات الأعيان[٥] وشذرات الذهب[٦] ومروج

(١)الأصفهاني – الأغاني – ج٤ – ص١٣٢٥

(٢)ابن قتيبة – الشعر والشعراء – ج١ – ص ٢٩٤

(٣)أنظر الطبري – تاريخ الملوك والرسل – تحقيق محمد أبو الفضل – القاهرة ، دار المعارف – ط١ – ١٩٦٦م ج٨ ، ص٦١٨

(٤) الأصبهاني– الأغاني – ج٤– ص ١٣٢٥

(٥)انظر ابن خلكان – وفيات الأعيان – ج١ – ص٢

(٦) انظر: ابن عماد الحنبلي – وفيات الأعيان – ج١ – ص٢

الذهب[١] ومرآة الجنان[٢]أما الرواية الخامسة، فتقول أن وفاته قد حدثت في٢١٣هـ، و قد ذكرها الأصبهاني[٣]والبغدادي[٤]وابن خلكان[٥] وابن كثير[٦]. ولعل المتأخرين نقلوا عن المتقدمين من هؤلاء الأدباء والمؤرخين ونرجح من الروايات الخمس تلك التي تذكر أن وفاة الشاعر كانت سنة ٢١٠هـ لأن راويها أولا ابن الشاعر ، وثانيا لأنها لا تختلف كثيرا مع رواية الطبري وهو مؤرخ عالم حجة قديم .دفن أبو العتاهية في بغداد وكان قد أوصى أن يُكتب على قبره:

أذن حي تسمعي — واسمعي ، ثم عي ، وعي
أنا رهن بمضجعي — فاحذروا مثل مصرعي
عشت تسعين حجة — أسلمتني لمضجعي
كم ترى الحي ثابتا — في ديار التزعزع
ليس زاد سوى التقى — فخذي منه أو دعي .

(١)انظر المسعودي – مروج الذهب – تحقيق محمد محي الدين – القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ط٤-١٩٦٤ج٤ص٣٥
(٢)اليافعي – مرآة الجنان – ج٢ص٤٩
(٣)الأصفهاني – الأغاني – ج٤ – ص ١٣٢٦
(٤) تاريخ بغداد – ج٦ – ص ٢٦٠
(٥)وفيات الأعيان ج١ ص ٢٠٠
(٦)ابن كثير– أبو الفداء عماد الدين إسماعيل – البداية والنهاية – مطبعة السعادة – ج١ ص ص ٢٦٦

المبحث الثاني

ونتناول فيه البواعث التي دفعته للتزهد .

* هل كان أبو العتاهية زاهداً ؟ لا يزال زهد أبي العتاهية منذ أيام الشاعر ، إلى يومنا هذا مصدر ريبة وشك ، تضاربت حوله الآراء متناقضة بين قائل أنه مصنوع مفتعل لا تدل ظواهره على واقع داخلي حقيقي ، وقائل أنه خالص صادق لا يشوبه رياء ، وفي سيرة أبي العتاهية وشعره ، ما يؤيد الطرفين على السواء ن فقد رُوي أنه كان يلبس المسح ويُحيي بعض الليالي سهراً للصلاة وقد انقطع عن الغزل منذ تزهد فلم يعد إليه مع ما كان يجد من تشجيع عليه ومن مضايقة أحيانا في هجره ، ولكنه مع ذلك كان أحيانا أخرى لا يبالي بشعائر الدين ويتهافت على حطام الدنيا بجشع ونهم ولم يكف حتى مماته عن طلب المال الذي كان شحيحا به إلى حد الإفراط ولم يدع فرصة تفلت من غير أن يستدرها مُصرحا بالاستجداء غير واجد بأساَ.(١)

والرأي الأرجح الذي يمكن استخلاصه من هذا التناقض، انه قد اجتمع لأبي العتاهية في نفسه وفي الأحوال التي أحاطت به عوامل متباينة كانت ترغبه تارة في الدنيا وتارة عنها ، فظل متقلبا بين هاتين النزعتين لا يجد سبيلا إلى الاستقرار على حال ، فقد كان من فطرته جنوحا إلى المثل الروحانية ميالا مع ذلك الى المرح والمتعة والحياة اللاهية ، ولكن من غير أن يتعدى في ذلك حدود الاعتدال إلا أن ضعة مولده قد صدمته منذ فجر حياته بواقع قاس فحطمت حينا طمعه في الدنيا ، راح الخلفاء يغدقون عليه

(١)ابن قتيبة – مرجع سابق – ص٤٩٧

عطاياهم فعوده الطمع ، غير أن الصدمة الجديدة لم تتأخر إذ خاب حبه لعتبة وكانت صدمة قاسية أرغمته على القناعة والتأمل عزم على الزهد في متع الحياة ، والظاهر أن عزمه كان صادقاً غير انه كان ضعيف النفس لا يملك قوة كافية للاندفاع وراء مثله العليا بكل جوارحه والتضحية في سبيلها بكل شئ، فظل متأرجحا بين رغبته في الحياة المُثلى وضعفه الذي يجرفه نحو الأباطيل يلبس المسح مقتنعا ويتنسك مخلصا ويقصد الزهد عن عقيدة ثم يتوسم فيه نفعا فيذهل عن عقيدته ويمضي في سبيل النفع . وإذا كان الزهد قد غلب على شعر أبي العتاهية فلأن شعره صورة داخل زهده حتى في شعره شئ من حب الذات وطلب الشهرة إذا رأى أصحاب الجد والتزمت ورجال الدين يقبلون عليه إلى درجة من الزعامة في العهد ، تظهر لنا حياة أبا العتاهية في مظهرين: حياة الغزل والمنادمة وحياة الوعظ والتقشف[١]فقد أجمع المؤرخون على أن شاعرنا كان في أول أمره يعيش كسائر الشعراء في عصره، فيمدح ويرثي ويتغزل، وفي القصيدة التي أنشدها يوم تولى المهدي الخلافة ما يدل على علو كعبه في باب المديح، وله في الغزل أيضا لطائف تُذكر ، ولقد انصرف في أول عهده إلى حياة اللهو والتهتك واشتهر بها حتى زعموا انه كُني بابي العتاهية لأنه كان يحب التهتك والمجون والتعته، ولكنه لم يكد يبلغ الخمسين حتى تحول عن سبيلهم.

وكان ذلك على ما رواه صاحب الأغاني في خلافة المهدي قال : كان ابو العتاهية لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج وكان

---

(١) الأصبهاني – الأغاني ج٤، ص١٢٨٨-١٢٩٠والبغدادي –مرجع سابق،ج٦،ص٢٥٨ود. محمد الكفراوي–أسطورة الزهد عند أبي العتاهية – القاهرة – دار النهضة–١٩٧٢م – ص٤١

يُجري عليه كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعادن فلما قدم الرشيد الرقة وذلك سنة ١٨١هـ لبس الشاعر الصوف وتزهد وترك حضور المنادمة والقول في الغزل) [١]فما الذي دفعه الى ترك ما كان عليه الشعراء والتزم طريق الزهد والتنسك؟ سؤال جدير بالنظر ولا بد لنا قبل الإجابة عليه ان ننظر في الأتي[٢]

* حالته النفسية واستعداده الفكري لذلك

* تأثر نفسه بتمسك معاصريه بأسباب الترف

* فشله في حبه لفتاة من جواري المهدي

* ميله إلى الطريقة الزهدية في الشعر

اما استعداده الفطري فليس لنا من دليل صريح عليه ولكننا نستنتج مما عُرف عن ابي العتاهية من حب المال والحرص على الدنيا انه كان ذا نظر في العواقب وعلى شئ حدث في ريعان شبابه من ضبط النفس مما لا تراه عادة في متهتكي عصره ، فلم يكن شديد الميل إلى الاتفاق في سبيل الشهوات ، بكلمة أخرى لم تكن مشاركته لزملائه في مجونهم أيام شبابه لتقتل ميله إلى الحرص والرزانة ؟، جاراهم، ولكن إلى حين ، واندفع في تيار الحياة ولكنه لم يرخ لنفسه العنان ولم يلب ثان رأيناه يتراجع عنه مشمئزا ، مهيبا بالآخرين أن يسلكوا سبيل الرشاد وان يعتبروا بظروف الزمان ، ولا نشك انه كان لعصره تأثير عليه وان ذلك التأثير تحول إلى

(١) الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص٢٧٧

(٢) محمد الكفراوي – صورة الزهد عند أبي العتاهية – دار النهضة – القاهرة – مصر – ١٩٧٢م – ص ٣٤-٣٨-٤١-٥٤

عاطفة شعرية مغايرة لعواطف زملائه يومئذ فترك الغزل والمنادمة واختط لنفسه أسلوبا أخر أحب أن ينفرد به .وإذن لنلمح ذلك بما نقله لنا ابن منظور عن ابن مخلد الطائي قال : (جاني أبو العتاهية فقال لي : (إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت إن تسأله أن لا يقول في الزهد شيئا ...الخ)[١] فأبو العتاهية إذن اصطنع الزهد واتخذه طريقا فنيا مندفعا إليه يسوق نفسه إلى هذا النوع من الشعر . فإذا صح ما زعمناه لشاعرنا من الاستعداد الفطري فانه مجاراة لهذا الاستعداد رأى أن ينفرد بالزهد دون سائر أبواب الشعر ، بقي أن ننظر في المحرك المباشر الذي حرك في نفسه شهوتها الزهدية فحبب إليه ترك حياته الأولى ، هذا المحرك هو حسب قول المؤرخون فشله في حبه لعتبة جارية الخيزران ، وعن المسعودي أن أبا العتاهية لبس الصوف ليأسه من عتبة وكان ذلك أيام الرشيد وقد آثر السجن على أن يرجع آلى الغزل .على ان مسلكه الزهدي ما راب بعض أهل زمانه وتجدد هذا الريب بصحة زهده للأجيال التالية فهذا أبو العلاء المعري يقول : (أبدى أبو العتاهية زهداً) [٢]

وفي العبارة ما فيها من الشك وفي ذلك النسق هناك حكايات لمعاصريه تنم على روح الاستخفاف بتزهده تتهمه بالادعاء والتظاهر فالشاعر في زهده كان يتصل بالمانوية كما شهد معاصروه وكما تشهد أشعاره ومثال الزاهد عنده هو نفس مثاله عند الهنود وهو (بوذا) الذي فر من مُلكه وساح مسكينا يفكر في ملكوت السموات والأرض ، فزهد أبي

(١) الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص٥٨٣,٥٨٧، ٥٩٨، ٥٩٩
(٢) البغدادي – تاريخ بغداد – ج٦– ص٢٥٩

العتاهية لم يكن زهدا إسلاميا خالصا ، بل كانت تشوبه عناصر أجنبية [١] وإذا رجعنا إلى شعره الذي روته المنتخبات المنشورة له باسم (الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية) وما روته له كتب الأدب مثل الأغاني وجدنا إشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب إذ يتراءى لنا في مرحلتين واضحا تمام الوضوح :

* المرحلة الأولى نراه فيها على شاكلة الشعراء المعاصرين له اللذين يجرون شعرهم في شاكلة اللهو والمجون ومجالس الأنس والطرب .

* المرحلة الثانية : مرحلة الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها والتفكير في الموت وظلمة القبر ويسود زهدياته في إثناء ذلك تشاؤم اسود حزين فالحياة ليس فيه إلا الألم و إلا الموت وغصصه وأولى للإنسان فيها أن لا يفرح بمتعها بل أن يبكي على نفسه ويقول :

لدواعي الخير والشر	دنـــــو ونـــزوح(٢)
سيصير المرء يومـــا	جســـــدا مـا فيه روح
بين عيني كل حـــي	علـم الموت يلـــــوح
كلنا فـــي غفـــلة	والموت يغدو ويـــروح
نح علـــى نفســـك	يـا مسكين إن كنت تنوح
لتمـوتن وان عمرت	مـا عمـــــــر نـــوح

(١) محمد الدش – أبو العتاهية – حياته وشعره– ص١٣٧-١٤٢

(٢) الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص١١٢

ويُقال أن الملاحين غنوا للرشيد هذه المقطوعة في إحدى نزهاته بدجلة فلما سمعها جعل يبكي وينتحب وفي هذا الخبر ما يدل على قرب شعره من روح الشعب ، فقد كان أفراد الشعب من الملاحين وغيرهم يغنون فيه مما يدل على انه كان له صدى عميق في نفوس الطبقة العامة التي لم تكن تعرف الترف ولا حياة الدعة واللهو التي عاشها الأمراء العباسيون وكانت زهدياته تعلوها مسحة الكآبة والتبرم بالحياة ، وهي ليست مسحة إسلامية فالإسلام لا يشوه الحياة ولا يبغضها إلى الناس بل يدعوهم إلى العمل الصالح ، أما أبو العتاهية فيصورها في سواد خانق وهو سواد جاءه من قراءاته في المانوية واختلاطه بأصحابها، وان لم يكن اعتناقه لها ولكن على أساس فلسفته التي قدمناها من التوفيق بينها وبين الإسلام بحيث امن بربه واقر بالثواب والعقاب في الدار الآخرة كما يشهد بذلك كثير من أشعاره [١]ومما لا ريب فيه انه يُكثر من قراءة المترجمات وخاصة في باب الحكم والموت فقد قالوا انه نظم في بعض مراثيه قول بعض الفلاسفة لما حضروا موت الإسكندر : (الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس)

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حياَ [٢]

وكان كثيرا ما ينقل حكم الأوائل من فرس وغيرهم إلى شعره ولعل ذلك ما أتاح له أن ينظم مزدوجته (ذات الأمثال) التي امتدت إلى أربعة ألاف بيت . يتجلى لنا أبو العتاهية من زهدياته رجلا ميالا للزهد عاكفا عليه بكل جوارحه ، لقد عوف من الحياة حلوها ومرها ورأى ان طيباتها لا تدوم

(١) الكفراوي – مرجع سابق – ص٣٢
(٢) الموسوعة الشعرية – الإصدارة الثالثة

وقد خبر القلوب فوجدها قلوبا تتقلب مع كل حال وتدور مع كل هوى وخبر الناس فوجدهم أتباع منافعهم ورغباتهم فصرف عن الدنيا وترهاتها وراح في صفوف البشر رسول خير ولسان موعظة وعبرة بل راح فيلسوف زهد يعمل ويقول وربما كان في قوله بعض الأثرة ذلك انه في عصر الفسق وزمان الانحطاط الأخلاقي أراد ان يكون صوتا ناشزا يلفت أنظار رجال الدين وأصحاب التزمت ويبني من وراء قوله قصرا من الشهرة وحسن النظر ثم انه قد تردد أحيانا بين الغزل والزهد وكان ذا شخصية ضعيفة متذبذبة لضعف في إرادته وخور همته ، وعلى كل حال فقد نصب نفسه للهداية وكان عمله جليلا . وقد أظهر في زهدياته ازدراء للحياة جماَ قد لفها بغشاء كالح السواد من شأنه أن يبعث على اليأس والقنوط إلا أنه على تشاؤمه قد أسدى إلى الناس نصحا ذا قيمة حقيقية ووجه كلامه إلى عقولهم مقدما لها البراهين والحجج غير مكتف بأساليب الأقدمين الاختيارية فهو في عصر فلسفة وتفكير وهو في عصر علم وجدل وهو في عصر نُصب فيه للعقل عرش رفيع قد استقى أفكاره من الكتب الدينية ونظريات الفلاسفة كما استقاها من عالم التجربة والاختبار وراح يدعو إلى القناعة لان الدنيا دار فناء والباخرة خير منها فمن يبني يبني للخراب ، ومن يولد يولد للموت ، وما يجمع للتفريق ومن يضحك لا يضحك إلا ليبكي ، فعلى الإنسان أن يعيش كما سيموت يكتفي بالضروري ويتسلح بالتقوى يدخر لنفسه أجرا عند الله .

وهكذا كان شاعرنا مجدداَ في باب الزهد إذ فلسفه وصاغه بقالب سهل ممتع فقد كثر شعره في الزهد وذكر الموت والتذكير بالآخرة ، وفي الأمثال التي تحمل على تدبر العبرة في الأمور ولو وقف بمذهبة عند هذا وهو مذهب جديد من ناحية الموضوع والتوسع فيه لقيل مذهب جديد اختار

له صاحبه طريقته في التعبير وخالف فيه نهج الشعراء وحاد عن جادتهم ولكنه على كل حال، اهتدى إلى أصوب طريقة يعبر بها عن فنه الجديد ونظرا لان شعره الزهدي يتميز عن سائر فنون شعره بالجدية ، واللوعة والندم واللهفة إلى جانب لا بأس به من التأمل ، واستشراف حقائق الوجود والموجود والحياة والموت والمصير في روحانية شرقية تكاد تبلغ مراتب الصوفية وروحانية هي مزيج من قيم الشرق القديم وتعاليمه وعقائده والقيم الجديدة التي دعا إليها الإسلام مضافا الى كل ذلك خصوصية تضج بها (أنا) الشاعر الملتاعة التي أسرفت في تعاليها وأوغلت في مجونها وعبثها وأرادت أخيرا أن تنيب إلى الله في توبة نصوح (ربما ؟) أو شبه نصوح ؟ كما أرادت أن تتميز بهذا اللون الشرقي الروحاني من الشعر الاعتباري الذي طالما عبر به حكماء الشرق عن خلجات قلوبهم الخاشعة وعقولهم المتأملة الحيرى إمام الله والكون والإنسان والمصير فجاء شعرهم الزهدي الصوفي[1] من على هذا الأساس انطلق أبو العتاهية في ترتيلاته وابتهالاته وعظاته فلم يكن بدعاً شعره الزهدي والازهده بالرغم مما قيل في هذا الزهد من تبديع وتهجين أما لماذا أكثر من هذا الشعر؟ فيمكن تلخيص ذلك في أربع نقاط.

أولا : لأنه انقطع عن قول الشعر في سائر الموضوعات لا سيما الغزل والخمر والهجاء.

ثانيا لأنه تفرغ للزهد واختص به وكان وحيدا فيه كما لا نوعا .

(١)شكري فيصل – أبو العتاهية – أشعاره وأخباره– ص٥٨

ثالثا : لأنه أحب حياة الزهد وكره الحياة (إلا الأحياء) كان في أصل طبعه ومزاجه وموحيات ثقافته .حتى الأحياء اللذين أحبهم وعاش معهم لم يحب فيهم تهافتهم وتخاذلهم واستسلامهم للهوان والطغيان ، أما الحكام فقد وجد نفسه مرغما على معايشتهم طلبا للشهرة والمجد والمال رغم ما يراه فيهم من ظلم وجور وفتك بالصديق من أول هفوة .

رابعا : ردة الفعل كانت عنده قوية بحيث هاله ما أرتكب من خطيئات وما تحمله من أوزار ووقع فيه من رذائل طيلة حياته اللاهية الماجنة .فكان طبيعيا أن يرتد إلى ينابيع جبلته وحقيقة مزاجه يستوحيه الخلاص مما هو فيه وسرعان ما أوحت إليه تلك العظات الزاجرة والحكم البالغة يمشي على هديها في طريق الرشاد والصحو الروحي داعيا الناس . فقد دعا إلى القناعة والرضا بالقليل :

ما شرف المرء كالقناعة والصبر على كل حادث يقع

لم يزل القانعون أشرفنا يا حبذا القانعون ما قنعوا (١)

وكأنه يحس أنه لم يكن من القانعين في شبابه فإذا حرره الزهد من الجشع والطمع هتف قائلا :

لما حصلت على القناعة لم أزل ملكا يرى الإكثار كالإقلال (٢)

ان القناعة بالكفاف هي الغنى والفقر عين الفقر بالأموال

(١)الموسوعة الشعرية – الإصدارة الثالثة

(٢)المرجع السابق

والجدير بالتوقف هو أن أبا العتاهية كثيرا ما توجه بحكمته الواعظة إلى هؤلاء الملوك فهم في نظره رأس الظلم وقمة الطغيان ومخافة أن يقع مرة أخرى ضحية جورهم .

ولا نحسب أن الشعب أحب زهديلته إلا لان الشعب يحس المعاناة ويذوق مرارة الحرمان والظلم كل يوم لكنه لا يستطيع أن يعبر عن إحساسه هذا في كثير من الأحيان حتى إذا انطلق من بين صفوفهم شاعر شعبي المنطلق كشاعرنا ذاق مثلهم ألوانا من القهر والإذلال وراح في زهدياته يعظ ويحذر وينتقم سارعوا إلى فهمه وتصديقه على انه منهم ومثلهم .

الواقع ان تجربة الزهد ومعاناة حياة الزاهدين لم تكن حارة ولا عميقة في حياة الشاعر بقدر ما كان توقه إلى تصوير تلك الحياة بكل معانيها ومعطياتها وأجوائها والرغبة في التخصص دون سواه بهذا اللون من الشعر الذي قل الناظمون فيه في عصره رغم كثرة الزهاد يم ذاك ، هو الدافع الحقيقي الذي دفع بأبي العتاهية إلى الإكثار من مثالث زهدياته ومثانيها تارة وقصائدها الطوال تارة أخرى ، ولم يخف هو هذا الدافع حين طلب من أبي نواس أن يترك له النظم في الزهد .

وإنصافا للواقع علينا أن لا ننكر زهده أو انه لم يعش حياة الزهد والتقشف كما أنكر عليه ذلك بعض معاصريه من خصوم ورجال دين وغيرهم ، حتى ا نابا العلاء المعروف بذلك الزهد وشفافية حدثه قد شك في صدق زهد أبي العتاهية وتنسكه حين قل في شئ من السخرية :

الله ينقل من شاء رتبة بعد رتبة

أبدى العتاهي نسكا وتاب عن حب عتبة

مشيرا لأنه لم يبد نسكا إلا بعد فشله في الحب وهذا ليس إنكارا على كل حال . وهناك روايات كثيرة عن طريقته في زهده ، كلها تُجمع على انه تزهد فعلا لكن على طريقته الخاصة بمعنى انه انقطع عن حياة اللهو لا عن الحياة كلها شيمة البوذيين المانويين فقد ظل ملتصقا بالناس واعظا ورادعا ومذكرا حتى عاد بعد الرشيد إلى معاشرة ولديه الأمين والمأمون مادحا واعظا فكيف ينعتون زهده بأنه زهد بوذي بعيد عن روح الإسلام ؟ أو قد علمنا أن بوذا تنسك وهجر الملك والسلطان وانقطع عن الحياة نهائيا وترهب مطبقا على نفسه تعاليمه التي تقول بالتصوف والانقطاع. والمؤسف أن القدامى وبعض المعاصرين لم يربطوا كما يجب النتائج بأسبابها الحقيقية في قضية زهد أبي العتاهية وجماع ما قالوه: لقد فشل في حب عتبة فتنسك ! فكأن تنسكه مزورا لأنه قسري لا طوعي كما لم ينطلق من منطلق إيماني صريح ، فهو إذا زهد ملغوز .. مانوي ... بوذي ! وخلاصة القول: إنه في هذا الجو النفسي الذي بدأ يعيشه الشاعر ومع ذلك الاستعداد الفطري وبكل تلك الرغبة في الزهد والتطور لتصوير حياة الزاهدين ومواعظهم شعرا ، كان لا بد لأبي العتاهية ألا يقول الشعر إلا في الزهد والتنسك والاعتبار ، حتى أصبح الزهد هو الموضوع الجيد الأثير لديه حين يتكلم وحين ينظم وحين يعظ ترفده في كل ذلك شاعرية فياضة وقدرة قادرة على صياغة الكلام العادي شعرا . يقول أبو العتاهية (في رواية لا بن عساكر) : انه قال في الزهد عشرين ألف بيت وبالطبع فقد أضاف عليها مئات إن لم نقل ألافا بين قوله ذلك وبين موته وكما ذكر الأصفهاني في أغانيه انه نظم ارجوزاه واحدة تسمى (ذات الأمثال) في أربعة ألف بيت . كل ذلك يدل على شاعرية فذة ورغبة داخلية صادقة في اتخاذ الزهد نهجا ومذهبا وأسلوبا لحياته ويجدر بنا أن تسال ترى ما الطريق الذي سلكه شاعرنا ليوضح لنا ما يؤمن به وما يعتقد . هذا ما سنقوم بتوضيح في الصفحات القادمات بإذنه تعالى .

الفصل الثاني

المبحث الأول: الزهد ومسلك أبي العتاهية، ورسالته التي أراد أن يوصلها إلى سامعيه وقرائه .

إذا نظرنا لأبي العتاهية على ضوء شعره انه متأثر بالمانوية في الخير والشر . وماهو مشهور عن المانوية أنها تدعو إلى الزهد في الغذاء والاكتفاء بملبس واحد في السنة ، والى ما فرضته على الأتباع من ذم البخل والكذب والسرقة والزنا، وإذا نظرنا إلى تأثير الرهبنة المسيحية التي تعتز بها الحيرة الغريبة من الكوفة، رأينا أن دعوته للزهد لا تخرج عن هذا الإطار.وجاء في كتاب(حركات الشيعة المتطرفين)أن شعر أبي العتاهية في الزهد يقوم على الأسس الآتية[١]

١- رفض الدنيا والزهد فيها .

٢- إيثار المسكنة .

٣- قمع الحرص على طلب الدنيا والسعي وراء الجاه والمنصب .

٤- مواصلة الصوم والتصدق بما أمكن .

٥- تحريم اقتناء شئ خلاف قوت يوم واحد ولباس سنة واحدة .

٦- الدعوة إلى اعتناق الزهد والإرشاد إلى صفاته .

والناظر إلى أشعاره يجده لا يخرج عن هذه الأغراض الستة . قال عبد اللطيف شرارة :(إن زهد ا يزال منذ أيام الشاعر حتى اليوم موضع ريبة تضاربت حوله الآراء إذ روى صاحب الأغاني، مختلف الروايات دفاعا

(١)عبد العال – حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية ، ط٢، ص١٥٧

عن نفسه ضد من اتهمه بالزندقة فقال : (كان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ، ويحتجون بان شعره إنما هو ذكر للموت والفناء ، دون ذكر النشور والميعاد . وذُكر في مقام أخر على لسان بعض المحدثين : (كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد ، وان الله خلق جوهرين متضادين ، ثم انه بني العالم هذه البنية منهما وان العالم حديث العين والصفة لا محدث له إلا الله وكان يزعم أن الله سيرد كل شئ إلى الجوهرين المتضادين قبل أن يفنى الأعيان جميعاَ، وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال، وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب وغيرها.) وجاء في الأغاني (أنه جرى بينه وبين أبي شعيب الحوار التالي: قال له أبو شعيب : القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق؟ فقال أبو العتاهية: أسألتني عن الله أم عن غير الله ؟ فقال أبي شعيب عن غير الله ؟ فاعتصم أبو العتاهية عن الحديث بالصمت وأعاد أبو شعيب السؤال، وهو يجيبه الجواب نفسه ، حتى إذا تكرر الموقف مراراَ صاح أبو شعيب : مالك لا تجيبني ؟ وكان رد أبو العتاهية قد أجبتك ولكنك حمار.)[١]
و قد أُتهم أبي العتاهية بالزندقة ولكنه نفى هذه التهمة بالأبيات التالية :

فيا عجبا كيف يعصي الآلة ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكه ... وفي كل تسكينه شاهد
وفي كل شئ له آية ... تدل على أنه الواحد (٢)

(١) الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص٨
(٢) الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص٣٥ ، ود. شوقي ضيف – مرجع سابق– ص٢٤٢والديوان ص١٢٢

وكانت تهمة الزندقة نصب عليه – حسب الظاهر – لأنه كان يُكثر من ذكر الموت والعقاب على السلوك الفاسد دون أن يتعرض للمعاد والبعث أو يتحدث في شئ عن الثواب الذي ينتظر المؤمنين ، وتلك هي الحجة التي استند عليها منصور بن عمار يوم أشهد جلساءه على أن أبا العتاهية زنديق، ولكن هذا دحض من بعد ن تلك الحجة أكثر من مرة فكتب إلى منصور بن عمار يُعاتبه:

إن يوم الحساب يوم عسير ليس للظالمين فيه نصير

فاتخذ عدة المطلع السفير و هول الصراط يا منصور(١)

مما حمل منصور بن عمار على التراجع: والقول:(أشهدكم أن أبا العتاهية قد اعترف بالموت والبعث، ومن اعترف بذلك بُري مما قذف به...) والرأي في هذا أن الإشعارالتي يدفع بها أبو العتاهية عن نفسه تهمة الزندقة أصبحت في أيامه الأخيرة، وديوانه يعج بالأقوال التي تبرئه كقوله:

فلو كان هول الموت لا شئ بعده لهان علينا الأمر ، وأحتقر الأمر

ولكنه حشر ونشر وجنة ونار وما قد يستطيل به الخبر

وقوله : إني لأعمر داراً ما لساكنها أهل ولا ولد يبقى ولا جار

فبئست الدار للعاصي لخالقه وهي لمن يتقيه نعمت الدار(٢)

وقوله :

ألم تر أن دبيب الليالي يسارق نفسك ساعاتها

(١) الديوان ، ص٢١٦و د. محمد الدش – مرجع سابق – ص٤٥،٤٤

(٢) الديوان ص ٨٣

وهذي القيامة قد أشرقت على العلمـــين لميقاتها

وقد أقبـــلت بموازينها وأهوالها ، ثم روعاتها(١)

إن المهم في تلك التهمة التي وُجهت إليه ن وشاعت عنه فـــي بداية أمره ، ليس إثباتها أو نفيها من خالا أقواله و أشعاره وإنما المهم فيها السبب الأول من خلال أعماله والداعي الأساسي إلى انتشارها وشـــيوعها ، فقد أفضى التحليل الذي قام به الدكتور شوقي ضيف إلى أنـــه كـــان يـــؤمن بضرب من الثنوية[٢]ودليله على ذلك ما أورده في أرجوزته الشهيرة [٣]

ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى

الخير والشـــر بها أزواج لذا نتـــــــاج ولذا نتاج

لكل إنســـــان طبيعتان خير وشـــــر ، وهما ضدان

وهذه الثنوية – رشحت إليه من الفرس – وكانت هذه العقيـــدة قـــد لقيت أرضاَ خصبة في مطلع العهد العباسي ، يعمل الشعوبيون على نشرها ، وهي القائلة بالهين واحد للنور والأخر للظلمة ، أما الأعمال التـــي كانـــت تدعو إلى الشك في صحة إيمانه فأبرزها حادثتان ، الأولى كما مر بنا سابقا عندما لبس ثياب راهب وأدعى انه قد رغب في الإسلام والثانية حينا لـــبس كساء صوف وآل على نفسه أن لا يقول شئ في الغزل بعد يأسه من عتبـــة وانقطع عن الناس ونصح من سأله كلمة يكتبها على خاتمه أن يكتب (لعنة

(١) الديوان ص ٩٩

(٢) شوقي ضيف – مرجع سابق – ص١٦٨، و عبد اللطيف شرارة ،ص٤

(٣)الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص٣٧ والديوان ، ص٤٩٨

الله على الناس) إضافة الى ذلك ما نشأ بينه وبين الشعراء والكبراء من عدوان ون الزندقة كانت سلاحا في أيدي المتخاصمين يشهره بعضهم على بعض ، بذلك نكوم قد عرفنا الثغرة التي طُعن منها الرجل وكيف شاعت عنه كل التهمة أضف إلى ذلك كله سخط السلطان هارون الرشيد عليه لسبب أخر يتصل بأراءه السياسية وأفكاره العامة حول شئون الرعية .

يقول محمد جابر عبد العال في زهد أبي العتاهية : " ولكن نرى أن أبا العتاهية ارتدى زي الزهد كذبا وتضليلا وأن مثله في ذلك مثل غيره من المتطرفين اللذين حفظوا أنفسهم تحت هذا المظهر ، نشير إلى إن حمدويه صاحب الزنادقة ، الذي أقامته الدولة للبحث عنهم وكشف أمرهم ، فأراد أن ياخ ذابا العتاهية ففزع منه فقد دار بينه وبين بشر الحوار التالي : قال بشر بن المعتمر يوما لأبي العتاهية بلغني انك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء أكذلك كان ؟ قال : نعم فقال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع نفسي حسبما وضعتني الدنيا وأضع منها ليسقط عنها الكبر وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة . فقال له بشر : دعني من تذليل نفسك بالحجامة فانه ليس بحجة لك أن تؤديها ، أحب أن تخبرني هل كنت تعرف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا قال بشر : أراك أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين [١] يُروى عن أبي العتاهية انه كان ينشد شعره في الزهد عند قتم بن جعفر بن سليمان ؟، وكان الجماز حاضراَ ، فبعد أن انتهى قال الجماز :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد

(١) المرجع السابق – ج٣ ،ص١٢٥ وحركات الشيعة المتطرفين – ص١٥٨

لو كان في تزهيده صادقا أضحى وأمسى بيته المسجد

يخاف أن تنفـــذ أرزاقه والرزق عند الله لا ينفذ

فقال أبو العتاهية : من هذا ؟ قالوا : الجماز وهو ابن أخـت سـلم الخاسر اقتص لخاله منك ، فأقبل عليه وقال ابن أخي : إني لم أذهب حيـث ظننت – مشيرا إلى هجائه سلم الخاسر – وألا أظـن خالـك، ولا أردت أن أهتف به ، وإنما خاطبته كما يخاطب الرجل صديقه فالله يغفر لكما ثـم قـام وهذا الذي ذهب إليه الجماز في وصف زهد أبي العتاهية هو نفسه الذي رآه إبراهيم بن المهدي فيه ، ذهب الجماز في وصفه أبا العتاهية إلى أنه يتخـذ الزهد سبيلا للحصول على المال ، وأنه غير صادق فيما يدعيه، وذلك لأنـه إذا كان يؤمن بهذا الزهد للزم المسجد، لكن لا يفعل ذلك ولا يبقى عن هـذا المسلك إلا أن يحظى بالمال ، وإذا تم التجاوز عن أقوال معاصريه ونظرنـا إلى شعره نجده يعترف اعترافا صريحا أنه غير مخلص في زهـده ؟، وان الدنيا تستهويه ولا يستطيع لفتنتها دفعا وذلك في قوله :

يظن الناس بي خيراً وإنـي لشر الناس ان لم تعف عني

أجن بزهرة الدنيا جنـوناَ وأفني العمر فيها بالتمني

وبين يدي محتبـــس ثقيل كأني قد دُعيـت له ، كأني

ولو أني صدقت الزهد فيها قلبت لأهلهـا ظهر المجن

وخلاصة القول إن أبا العتاهية كما رأينا تصوير معاصريه وكما قـال عن نفسه، لم يذهب إلى الزهد الإسلامي الذي يجعل من صاحبه رجل عبادة وتسبيح، يؤثر الآخرة من جنة ونعيم ويخاف من نار وجحيم يتـردى فيهـا

الأشقى، وإنما ذهب إلى الزهد متأثرا بالمذاهب غير الإسلامية[١]ومن هنا قد تمثل لنا أبو العتاهية على حقيقته. وإذا تناولنا بعض شعره الوارد في الزهد لنرى مدى تأثره بالمذاهب المتطرفة ، بعد ما بينا سابقا القواعد التي بنـــي عليها هذا الزهد ، وأهمها رفض الدنيا واحتقارها ، نرى ذلك في قوله:

إنما الدنيا على ماجبـــلت جيفة نحن عليها نصطرع

التقي البر من ينبـــــذها والمحامي دونها الغر الخدع

فسد الناس وصاروا إن رأوا صالحا في الدين قالوا مبتدع(٢)

وفي هذه الأبيات يصور الدنيا أبشع صورة وهو كما يبدو يلـــح فـــي وصف الدنيا على هذه الصورة المُنفرة ، فلا تروق بعض الناس ولا يعجبهم منه هذا التهويل ، ورأوا في قوله خروجا على تعاليم القران فاتهموه بالبدع فنفى عليهم هذا الفهم ورأى أن ما يقوله هو المذهب الســـليم .وفـــي هـــذه الصورة التي أوردها أبو العتاهية لوصف الدنيا غلو في الزهد يـــودع فيـــه أفكاراً تشيع في الرهبنة المسيحية ، كا تشيع فـــي بعـــض المـــذاهب غيـــر الإسلامية المتأثرة بالمانوية أو البوذية لأننا نراه يلح في نبذ الدنيا ورفضها واحتقارها وتشويه ما فيها من جمال .

يقول محمد عبد العال في كتابه (حركات الشيعة المتطرفين) (لـــم تكن نظرة أبي العتاهية إلى الدنيا – كما يدل شعره – قاصرة على تصويرها بهذه الصورة المنفرة وحدها ، فصور ما تواضعت عليه البشرية واستقر في النفوس نحو حياتهم في الدنيا ، على انه عبـــث لا طائـــل منـــه ، وأجـــدر

(١)عبد العال – مرجع سابق – ص١٦٠

(٢)الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص٧والديوان، ص ٢٥٨

بالإنسان أن يتخلى عنه لان ما يبذله من جهد مصيره الضياع ويبدو ذلك في قوله :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصـــــير إلى تباب

لمن نبني ونحن إلى تـــراب نصير كما خُلقـنا من تراب

ألا يا موت لم أرى منك بدا أتيت وما تحيف وما تحابي (١)

وفي هذه الأبيات يتصور الشاعر الدنيا بأنها لا تستحق منا أن نترك فيها ذرية من بعدنا ، وألا نقيم فيها بناء لان المصير المحتوم هـو المـوت والخراب فلماذا نبذل الجهد فيما هو ضائع وزائل ومن الأسباب الأخرى التي بني عليها الشاعر زهده قمع الحرص على لذائد الحياة والسعي وراء الجاه والمنصب ، وهنا نلقاه كدأبه مسرفا في التصوير يتلقى الوحي من ثقافـات عصره فيقول : حُبب الأكل والشراب إلينا وبناء القصور والتجميع

وصنوف اللذات من كل لون والفناء مُقبل إلينا سريع

هذا المعنى غريب عن الإسلام ، لان الإسلام حين ينادي بالقصد فـي الشهوات والملذات ، الغرض من هذه الدعوة خدمة المجتمع لا لأن الإنسان سيحرم منها بحكم الفناء الذي سيلحق كل شئ . ولدكتور عبد العال وجهـة نظر تزعم أن أبا العتاهية لم يهمل الثقافة الإسلامية وانه كـان ى إليهـا ، وهكذا كان أمره حين هاجم النزعة إلى اللهو والمخون ، بـدأ داعيـا إلـى الرشاد ، ناصحا بالابتعاد عن طريق الفساد ، يشتط أحيانا ولكنه لا يخـرج عن الإطار الذي ألفه المسلمون، هاجم نزعة المجون ليحارب الإباحية قائلا:

(١)الديوان – ص ٢٥٧وحركات الشيعة ، ص ١٦٥

يا من تمجن مهـــــلا قد طال منك ا لمجون

هونت عصف الليالي هونت ما لا يهون

يا ليت شعري إذا مـا دفنت كيف تكـون

لو قد تركت صريعا وقد بكتك العيون

لقل عنك عنـــــاء دمع عليك هتـون

هذا التصوير وإن بدا شديد إلا انه لم يبعد عن الجو الإسلامي . وأما ما وردنا عن ما قاله الشاعر في تسفيه السعي وراء المنصب والجاه فهـو قليل جدا وربما يرجع ذلك إلى احتمالين

الاحتمال الأول : إما أن يكون ما قاله في هذا الميدان قد ضاع مـع ما ضاع من شعره

والاحتمال الثاني : إما أن يكون الشاعر مُقلا ، لأنـه كـان يخشـى سطوة رجال الدولة .

ومن مستلزمات الزهد عند أبي العتاهية إيثار المسكنة وهذا اللـون من الحياة يتفق وما ذهب إليه من نبذ الدنيا واحتقارها ويتلاءم مـع قـوم قست عليهم أوضاع الحياة فلا يستطيعون الخلاص منهـا، و وصـف أبـي العتاهية للمجتمع الذي كان يعيش فيه، يوحي بأن الدعوة إلى إيثار المسكنة تلقى أذناَ صاغية .قال الشاعر يصور لنا دعوته في هذه الناحية : [١]

رغيف خبز يابس تأكله في زاويـة

وكـــوز ماء بارد تشربه من صافية

(١)حركات الشيعة ، ص١٦٧

وغرفة ضيقـــة نفسك فيها خالية

أو مسجد بمعزل عن الورى غي ناحية

في هذه الأبيات نرى الشاعر يطلب من المرء أن يكتفي من الطعـــام بقطعة من الخبز يابسة ومن الشراب بقليل من الماء البارد ومـــن المســـكن بغرفة ضيقة لا يشاركه فيها احد وهذا المنهج في الحياة يبدو أنه من إيحاء الرهبنة . يقول أبو العتاهية مما أنشد سلم الخاسر :

سكن يبقى له سكن ما بهذا يؤذن الزمن

نحن في دار يخبرنا ببلاها ، ناطق لسن

كل نفس عند ميتتها حظها من مالها الكفن

ومن شعره المزدوج أرجوزة يعدونها من بدائع أبي العتاهيـــة وهي طويلة يقال أن فيها أربعة آلاف مثل وقد سموها (ذات الأمثال) منها:

حسبك ما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت (١)

الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخـافا

ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله

إن الفساد ضد الصـــلاح ورب جد جره المـــــزاح

من جعل النمام عينا هلكا مبلغك الشر كباغيه لك

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

(١) الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص١٣ والديوان ص ٣٤٨- ٣٤٩-٣٥٠

ونختم هذا الجزء من الدراسة بابتهاليه خاشعة يرددها أبو العتاهية بل هي اعترافات إنسان يتضور ندما ويضج أسى ولوعة يصعد كل ذلك في دعاء لاهث حزين ، فقد قال يستغفر الله عن ذنوبه وهو أخر شعر قاله أبو العتاهية في مرضه الذي مات فيه :

إلهي لا تعذبني فإنـــي	مُقر بالذي قد كـــان مني
وما لي حيلة إلا رجائـــي	وعفوك إن عفوت وحُسن ظني
فكم من زلة لي في الخطايا	وأنت عليَّ ذو فضل ومـــنً
إذا فكرت في ندمي عليهـا	عضضت أناملي وقرعت سنـي
يظن الناس بي خيراً وإني	لشر الناس ، إن لم تعف عني
أجن بزهرة الدنيا جنوناَ	وأفني العمر فيها بالتمنـي
وبين يديَ مُحتبس ثقيـل	كأني قد دُعيت له كأنـــي
ولو أني صدقت الزهد فيها	قلبت لأهلها ظهر المجن (١)

*** رسالة الشاعر** :

طاف أبو العتاهية كما رأينا ينبذ الدنيا ويقبحها في نظر الناس ويصور فجائعها ونكباتها وتغريرها بالإنسان ، زاما حياة اللهو والبذخ والإسراف ، مرغبا في حياة القناعة والكفاف ومذكرا بنهاية الإنسان على هذه الأرض مهما علا شأنه ، ومهما طال عمره فمصيره الموت ويصبح كأنه ما كان ويتساوى في التراب مع عامة الناس . ويرى احد النقاد

(١) الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص١١٢،١١١ والديوان ص ٤٧٦،٤٧٥

المعاصرين أن شاعرنا لا يحمل في شعره رسالة جديدة ولا يضع مبادئ فلسفية خاصة وإنما يعكس لنا روح الشرق الدينية : احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة وأن وجه الضعف في رسالة أبي العتاهية أنه قام ينشد لنا أناشيد الدين في شعره يقلد الزهاد ورجال الدين تقليداً .ويستخلص الدكتور محمد خلف الله من شعر أبي العتاهية فكرتين أساسيتين(١):

الأولى : زوال الدنيا وغرورها وباطلها .

والثانية : هول الموت ووحشة القبر وبشاعة الفناء .

والحقيقية التي يمكن استخلاصها من شعر أبي العتاهية الزهدي أن مدار شعره هو الإنسان ، الإنسان من حيث سعيه المُلح في الحياة الدنيا ، يستكثر من المال والولد ، يجمع الأموال ويُشيد الدور والقصور ويقبل على الشهوات وملاذ الحياة ثم ماذا ؟ انه الموت الذي يأتي على الجميع فلا يُبقي على الأرض ديارا . ومن المؤكد أن الشاعر لم تشغله حياة الإنسان ونهايته فحسب، وإنما كانت الفكرة الأساسية التي شغلته أيضا الدنيا وزوالها والقضاء على أمرها لا محالة وهو ينطلق في مخاطبة النفس من أهم أمرين في حياتها : الأول : حقائق الحياة الثابتة التي لا تقبل الشك ، كحقائق الموت وتقلب الدهر وزوال الدنيا .الثاني : الأخلاق والدين وهذا هو الجانب التعليمي في شعره ، حيث يحث على الفضائل والمحامد كالصدق والحلم والصبر ويطلب من المرء الرفق بالناس واللين في معاملتهم . فالشاعر يضع أسس الأخلاق على ضوء ديني مستمد من الأخلاق الإسلامية من

(١)أنيس المقدسي- أمراء الشعر في العصر العباسي - ص١٥٧

مسامحة الناس والبر إليهم وسترهم ووصل القاطع والتغاضي عن الجاف ... الخ

ويمدح الخلق الطيب السوي في الإنسان من رجاحة العقل والتفكير فيقول :

ما أنفع العقل لأصحابه نتيجة العقل تمام الأدب (١)

إني أرى المغرور من غره الـ دهر على كثرة ما ينقلب

ما يستقيم الأمر إذا التوى ولا يجئ الشي إلا وذهب

وأبو العتاهية يهدف بشعره (التعليمي) أو (التربوي) إلى تهذيب المسلم وإصلاح سلوكه وغرس الفضائل في نفسه ليكون مسلما صالحا في مجتمعه . إن التزام الشاعر بقضايا الزهد وأفكاره هو امتداد للالتزام بالدين الإسلامي لان الزهد شديد الالتصاق بالإسلام قائم على تقوى الله والورع والصبر ومغالبة الشهوات .و لا شك أن في زهديات أبي العتاهية دروسا قيمة فهو يعلمنا ألا ننطلق وراء أوهام الحياة ولا نسرف في طلب الإغراض الزائلة إلا أن في إذدراء أبو العتاهية للحياة مغالاة وتشاؤما مضرين ؟، فهو لا يكاد يرى في الحياة غير ظلام وفناء وهو يغفل عما للحياة من قدر قيم ، كما أنه يذهل عن قيمة الجهاد الذي يتحتم على كل إنسان لنوال الآخرة بحيث إذا توقف الإنسان عند نظرات أبي العتاهية وجب عليه أحيانا أن يكتف يديه ويستسلم للخمول .

(١) المرجع السابق – ص ١٦٠

المبحث الثاني : أراء النقاد حول شعره الزهدي:

شأن الشعراء الكبار في كل عصر أن يختلف الناس فيهم ، ويختصموا ، بين مؤيد ومعارض . ومن البديهي أن يكون لذلك عظيم الأثر في إثراء الحركة الأدبية والنقدية ودفعها إلى الأمام .

وشاعرنا من هؤلاء اللذين أثاروا اختلاف النقاد في عصره فرفعه بعضهم ووضعه آخرون ، منهم من وجد في أسلوبه السهل مطعنا يوجه إليه وينال من شاعريته ونهم من رفعه وتعصب له فجعله أشعر الجن والإنس .هذا الشاعر كان الناس ينقسمون في حبه وتقديره فمنهم من تأخذ أريحيته بنفسه وقلبه فيغلو في الرفع من شأن أبي العتاهية ويتعصب له ، ومنهم من لا ينظر إليه هذه النظرة بل نقيضها فهو يحط من قدره وقدر شعره حطة تزري به ، فيقول رجل لرجل عن شعر أبي العتاهية : أسمعت أعجب من هذا الأمر ؟ تقول الشعراء الشعر الجيد النادر فلا نسمع منهم ، ويقول هذا المخنث المفكك تلك الأشعار بالشفاعة . ثم انشد[١]

أبا اسحق راجعت الجماعة	وعدت إلى القوافي والصناعة
وكنت كجامع في الفي عاص	وأنت اليوم ذو سمع وطاعة
فجر الخز مما كنت تكسي	ودع عنك التقشف والبشاعة
وشبب بالتي تهوى وخبر	بان كمين في كل ساعة
كسدنا ما يزاد وان أجدنا	وأنت تقول شعرك بالشفاعة

(١) الديوان – ص٣١

ويسمع آخر شعره في مجلس ابن الأعرابي ، وقد اثني عليه فأفرط ، فيقول له : ما هذا الشعر بمستحق ما قلت . فيقول له ابن الأعرابي : لم ؟ فيجيبه : لأنه شعر ضعيف. فيقول له ابن الأعرابي: ألأبي العتاهية تقول انه ضعيف الشعر والله ما رأيت شاعرا قط أطبع ولا اقدر على بيت منه ، ولا احسب مذهبه إلا ضربا من السحر .[١]

ويسال مسلم بن الوليد وهو بجرجان يتولاها ، رجلا قادما من مدينة السلام عمن خلف بها من الشعراء فيقول : خلفت بها كوفيا ، وبصريا ، وقد غلبا على الشعر ، أما الكوفي فأبو العتاهية وهو مقدم عندهم ، ومن البصريين أبو نواس فيقول مسلم : كيف يتقدم عندهم أبو العتاهية وهو يقول: (رويدك يا إنسان لا أنت تقفز) أخرجت تقفز من فم شاعر محسن قط ؟ وبقدر ما كان يتعصب خصوم أبي العتاهية على فنه ومذهبه ، كان أنصاره يتعصبون له ويعجبون به بل يتطرفون في الإعجاب به ، فقد اتفق كثير من الشعراء على تفضيل أبي العتاهية على أنفسهم والروايات في ذلك كثيرة . فكان ابن الأعرابي يقول عنه : ما رأيت شاعرا قط أطبع ولا اقدر على بيت مثله ، ما احسب مذهبه إلا ضربا من السحر [٢]ويسال رجاء بن مسلمة ، سلم الخاسر : من أشعر الناس ؟ فيقول : إن شئت أخبرتك بأشعر الجن والإنس ، فيقول له : إنما أسالك عن الإنس ، فن زدتني الجن فقد أحسنت ، فيقول له سلم: أشعرهم الذي يقول :

سكن يبقى له سكن ما بهذا يؤذن الزمن

(١) الأصبهاني ، الأغاني ، ج٢، ص٢٨٦
(٢)الأصبهاني – مرجع سابق – ج٢– ص٢٢٨

والشعر لأبي العتاهية . وان كان حكم سلم الخاسر يبقى فيه مبالغة إلا إن ذلك لا يفقد الرواية دلالتها على تقديم الشعراء لأبي العتاهية . وقد أقر له أيضا بشار بن برد انه شاعر مطبوع على انه كان يحسده ، ويسمع رجل مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية اشعر الناس ، فيقول له الر جل : بأي شئ استحق ذلك عندك ؟ فيقول لقوله [١]

تعلق بآمـــــال طـــوال أي أمال
وأقبلت على الدنيا ملحـــا أي إقبال
أيا هذا تجهـــز لفراق الأهل والمال
فلا بد من المـــوت على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل لا حشو فيه ولا نقصان يعرفه العاقل ويقر به الجاهل .ومن الطريف أن هذا الفن العامي كان يرضي سيد الخاصة في هذا الزمان ، كان الرشيد يقدم أبا العتاهية على العباس بن الأحنف ، ويتعصب لأبي العتاهية تعصبا شديدا ، وكما كان يرضي ملك الأدب في ذلك العصر ، كان يرضي الجاحظ رضا يبلغ حد الانتشاء .

أخبر أبو دلف محمد بن هشام الخزاعي قائلا : تذاكروا يوما شعر أبي العتاهية بحضرة الجاحظ، إلى إن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التي سماها (ذات الأمثال) فاخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

(١)المرجع السابق – ج٤ – ص١٢٢٨

فقال الجاحظ للمنشد : قف . ثم قال : انظروا إلى قوله روائح الجنة في الشباب ، فان له معنى كمعنى الطرب، الذي لا يقدر علـــى معرفتـــه إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل، وإدامة التفكير. وخيـــر المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه ولا غرابة أن يكون هذا قدر إعجاب الجاحظ بشعر أبي العتاهية الشعبي. ولقد كان احتفاء الناس بلقاء شعر أبي العتاهية يأخذ مظهر هذه الشعبية مما يكشف عن مدى إحساسهم بتعبير هذا الشعر عن نفوسهم، وتجاوبه مع حاجاتهم فنجـــد أبـــا العتاهية يلقي شعره في المحافل العامة، ويزدحم حوله سامعوه .ونحس ذلك التجاوب بين الشاعر والناس إحساسا قويا يحدث بين العامة، عن شيخ من أهل الكوفة قال: (دخلت مسجد المدينة ببغداد، بعد أن بويع الأمين بســـنة ، فإذا بشيخ عليه جماعة وهو ينشد:

لهفي على ورق الشباب وغصونه الخضر الرضاب
ذهب الشباب وبان عني غـير منتظر الإيـــــاب
فلا بكين علـــى الشباب وطيب أيـــام التصابي
إني لأمـــــــل أن أخلد والمنية فـي طـــلابـــي

قال : فجعل ينشدها ، وان دموعه تسيل على خديه فلما رأيت ذلك لم اصبر أن ملت فكتبتها ، وسألت عن الشيخ فقيل لي هو أبـــو العتاهيـــة [١] وأعجب ما في شعر أبي العتاهية الزهدي تلك الغـــزارة والخصـــب ، ومـــن أعذب ما فيه انقياد الشعر له وحضور المعاني وقدرته الفذة على أن يجعـــل من كل شئ شعرا قريب التناول .قال المبرد : كان إسماعيل بن القاسم أبـــو

(١) الديوان – ص ١٥٢

العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ لشعره ديباجة ويخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا . [١]

وسئل ابن منازر : من اشعر أهل الإسلام ؟ ففضل من السابقين ومن المحدثين (ى هذا الخبيث الذي يتناول شعره من كمه) [٢]يعني أبو العتاهية وهناك رواية مهمة عن أبي تمام انه قال : (لأبي العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها احد ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر) وهذا الرأي مهم لأنه يبين لنا رأي شاعر كبير الشأن له مكانته في تاريخ الشعر العربي . ويستحسن ابن المعتز كثيرا من شعر أبي العتاهية ويثني عليه [٣]أما ابن الأثير فقد عرفنا رأيه الذي نوه فيه بأسلوبه السهل ومن قبل ابن الأثير مدح الثعالبي أبياتا لأبي العتاهية وأثنى عليه . وجعله ابن خلكان من مقدمي المولدين وفي طبقة بشار وأبي نواس [٤]ورواة اللغة وعلمائها المحافظين على الأسلوب القديم ، رحبوا به واثنوا عليه فقد شهد له الفراء بالتقدم والشاعرية في احد مجالس الأدب عند جعفر البرمكي[٥]وذكر الزبير بن بكار في الموفقيات، قال : حدثني إبراهيم بن المنذر ومحمد بن الضحاك قالا: حدثنا عبد الله بن عبد العزيز العمري العبد: أشعر الناس أبو العتاهية حيث يقول[٦]

---

(١) المرجع السابق – ص١٢٨٨

(٢) المرجع السابق – ص١٢٧١

(٣) راجع: طبقات الشعراء – ص ٢٢٩،٢٣٣،٢٣٤

(٤) الثعالبي – خاص– تقديم حسن الأمين–دار الحياة، بيروت – ١٩٦٦– ص١١١،١١٠

(٥) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٣

(٦)الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص ١٣ والديوان – ص ٢٥٤

ما ضر من جعل التراب مهاده ألا ينام على الحرير إذا قنع

ولعل من أنصف الأحكام رأي الأصمعي في شعر أبي العتاهية ، حيث قال : (شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى) [١]فهؤلاء أئمة النحو والفقه والشعر يشهدون له بالطبع والإحسان والتقدم وصناعة الشعر. وكان أبو نواس مولى لهم يعترف لأبي العتاهية بالفضل والتقدم في الشعر وعنه في ذلك أخبار . وكما رفعه من ذكرنا من النقاد واثنوا عليه ، وضعه غيرهم. فالمرزباني قد رصد بعض أخطاءه وسقطات شعره [٢]وورد عن المدائني انه قال : (العباس بن الأحنف في الغزل مثل أبي العتاهية في الزهد ، يكثران الحز ولا يصيبان المفصل) [٣] ونفى عليه العسكري برودة أبيات في شعره وبعض المعاني البشعة[٤] والابتداءات الباردة[٥] والخطأ في بعض المعاني. ومن النقاد المحدثين – وقد وقد عرضنا أغلب أرائهم فيما سبق – أنيس المقدسي الذي عرض كثير من عيوبه منها أن لا يهتم بطرح الغث من الألفاظ ويكرر الكلمات والعبارات والموضوع [٦] ويرى البستاني أن سهولة أبي العتاهية كانت تقوده أحيانا الى تساهل في التركيب ، يؤدي إلى ركاكة بكثرة المكرر والساقط

(١) الأصبهاني – مرجع سابق – ج٤ – ص١٢٥٤

(٢) راجع: المرزباني – الموشح – ص٢٣٧،٢٣٣، وأكثر هذه السقطات في الغزل والرثاء.

(٣)المرجع السابق – ص ٢٦٣

(٤) العسكري – الصناعتين – ص١٣٢

(٥) المرجع السابق – ص٤٩٦

(٦)أنيس المقدسي – أمراء الشعر – ص١٦٨، ١٧١

والمرذول.[١] وعلى الرغم من هذه الآراء المتباينة حول شاعرية أبي العتاهية ، تظل الحقيقة الناصعة أنه شاعر مطبوع يصدر الشعر عنه فيضا عفويا . وقد أكثر من النظم إلى درجة كبيرة . وشاعر هذه صفته لا بد أن يكثر لديه السقط والزلل ، لأنه لا ينقح شعره ولا يهذبه وربما لا يعيد النظر فيه أبدأ . بل يقدمه إلى الناس بصورته العفوية . ومثل هذا الشعر تجتمع فيه الجودة والرداءة ، والقوة مع الضعف . جاء في الأغاني (لو وضعت أشعار العرب كلها بإزاء شعر أبي العتاهية لفضلها ، وليس بيننا خلاف في ان له في كل قصيدة جيدا ووسطا وضعيفا ، فإذا جمع جيده كان أكثر من جيد كل مجود)[٢] وفي رواية عن الحرماني قال : (شهدت أبا العتاهية وأبا نواس في مجلس وكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جوابا عند البديهة ؟، وإذا توقفا وتسهلا فضله أبو نواس)[٣]و هذه ظهر طريقة أبو العتاهية العفوية التي تؤدي إلى السرعة في النظم وهي طريقة تميز بها وبرع فيها؟، لا يستطيع ابو نا مجاراته فيها ، كما انه لا يستطيع مجاراة ابي نواس في طريقته التي تعتمد على التأني وإعادة النظر فيما نظم . ومن هنا كان حكم الأصمعي الذي أصاب فيه حينما شبهه شعر أبي العتاهية بساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى . إن شعر أبي العتاهية الزهدي على ما فيه من الضعف والركاكة في بعض الأحيان ، يعطينا تجربة صادقة يتحدث فيها إلينا بصورة مباشرة ، دون اللجوء لتعقيدات اللغة

---

(١) بطرس البستاني – الأدب العباسي – دار المعارف – طهران – مؤسسة مطبوعاتي – ١٩٧٧م – ص٢٤٦،٢٤٧

(٢) الأصبهاني – مرجع سابق – ص ١٢٩٨

(٣) المرجع السابق – ص ١٢٩٨

وزخارف البيان ، مُبسطا لغة شعر الزهد الذي قصر ثلاثة عقود من عمره على القول فيه فأربى عل كل قائل وأجاد في كثير منه ، ويمكننا القول أنه فلسف الزهد وملا الأدب العربي في عصره بالموت والتخويف منه ومما بعده، واحتقار اللذة ، والجهد في الهرب منها ، وشعره لجمهور الناس لا إلى الخاصة.[١]فاستحق أبو العتاهية ريادة شعر الزهد العربي يجدد فيه ويطور . ويكفيه فخراَ أنه كان رائد نزعة خلقية وهنت في عصره.

(١)أحمد أمين – ضحى الإسلام – ج١- ص١٨٦

الخاتمة :

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ، ويكافيء مزيده ، وأشهد أن لا إله إلا اله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، وخيرته من خلقه صلى الله عليه وسلم، أما بعد فالحمد لله الذي وفقني لإنجاز هذا البحث والذي من خلاله استطعتُ تسليط الضوء على حقيقة الزهد في حياة وشعر إسماعيل بن القاسم ، واستقيتُ منها نتائج عديدة كان أبرزها :

نتائج البحث :

١/ كان لانتماء أبي العتاهية إلى طبقة اجتماعية محتقرة بعرف المجتمع ونشأته بين الأحياء الشعبية في الكوفة أثره الخطير في حياته وفنه . وقد ساعده ذلك على فهم طبيعة حياة الناس مما حقق له تجاوب قطاع كبير من المجتمع الذي يعيش فيه .

٢/ تمثل زهدياته الجانب النظري لأفكار الزهد اصدق تمثيل وليس أدل على ذلك من (ى وصيته) المشهورة التي تضمنت أسس ومبادئ الزهد كما وضحت سبل السلوك العملي والالتزام الخلقي كما ينبغي أن يكون عليه الزاهد المثالي

٣/ انه كان ملما ببعض الفلسفات السائدة في عصره. وقد تبدت آثار ذلك في زهده حينما تحدث في فكرة الخير والشر وعناصر الكون ومكونات الأشياء وطبائعها والجبر والاختيار..إلخ.

٤/ براءته مما الصق إليه من تهم الزندقة والدهرية . وهذه النتيجة تمخضت بدراسة وتمحيص لمعتقداته عن الله تعالى ، وبمدى إيمانه بالآخرة ، وما فيها من حساب وعقاب ، فظهرت الحقيقة ناصحة وهي صحة عقيدته وسلامتها وانه لم يتعدى دائرة الإسلام بأفكاره التي في الخير والشر

٥/ إن بواعث تنسكه وزهده منها ما هو ذاتي وما هو موضوعي .

٦/ ظهور التناقض في سلوكه الزهدي إذ انه لم يلتزم بما يدعو إليه الزهد فبينما هو ينادي بالكفاف والقناعة تراه خ يمدح وينال العطايا ويحرص على جمع المال وكنزه . مما يؤكد على أنه مازال في الأطوار الأولى من الزهد وانه لم يكن قد تخلص من كل شهواته لذا فلم يصل به الحال إلى درجة الزهد المطلوبة من الورع والصبر والإقلاع بتاتا عن متع الحياة .

٧/ أن زهد أبي العتاهية كان التزاما فنيا بقضايا الزهد ودعوته أكثر منه سلوكا علميا .

٨/ كانت البيئة من أهم مؤثرات طريقته الشعرية حيث عاش في بلدنه عين التمر المشهورة بتمرها ونخيلها وريفها الساحر ثم الكوفة المجونية وبغداد المترفة بالإضافة إلى ما غلب عليه من ثقافة أدبية حديثة آنذاك .

بقي لنا أن نؤكد أن أبا العتاهية لم يضع شعره الزهدي وحواراته النفسية على غرار نماذج وإشكال يحتذيها وهذا لا ينفي اطلاعه على التجارب الشعرية السابقة له ، ولكن يبقى غرضه الشعري نابعا من تجربته الزهدية بكل أبعادها النفسية والإنسانية .

فهرست المصادر والمراجع

١/ القرآن الكريم

٢/ أحد الآباء اليسوعيين – الأنوار الزاهية في شرح ديوان أبي العتاهية – ١٩٨٦م

٣/ أحمد أمين – ضحى الإسلام – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت–لبنان– ٢٠٠٤م

٤/ أحمد حسن الزيات– تاريخ الأدب العربي– القاهرة– دار النهضة المصرية – طبعة ١٩٦٣م .

٥/ أنيس المقدسي– أمراء الشعر في العصر العباسي – الطبعة الخامسة – بيروت – لبنان – دار العلم للملايين – ١٩٦٧م .

٦/ البستاني – فؤاد البستاني – أبو العتاهية – سلسلة الروائع– طبعة ١٩٥٩م – بيروت – لبنان

٧/ بطرس البستاني– الأدب العباسي– طهران– مؤسسة مطبوعاتي – ١٩٧٧م .

٨/الثعالبي – عبد المالك بن محمد – خاص الخاص – تقديم حسن أمين – بيروت – لبنان – منشورات مكتبة دار الحياة –١٩٦٦م .

٩/ أبو الحسن المسعودي – مروج الذهب ومعادن الجوهر– تحقيق محي الدين عبد الحميد – الطبعة الخامسة – دار الفكر – بيروت – لبنان– ١٩٧٣م .

١٠/ حنا الفاخوري – تاريخ الأدب العربي- المكتبة البوليسية- بيروت- لبنان

١١/ الخطيب البغدادي –أحمد بن علي – تاريخ بغداد- الطبعة الأولى – القاهرة- مكتبة الخانجي – ١٩٣١م .

١٢/ ابن خلكان – أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد – وفيات الأعيان – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – الطبعة الأولى – القاهرة – مكتبة النهضة المصرية – ١٩٤٨م

١٣/ خليل شرف الدين – أبو العتاهية – الموسوعة الأدبية الميسرة – الإصدارة السابعة .

١٤/ شوقي ضيف- الفن ومذاهبه في الشعر العربي-القاهرة- دار المعارف- ط٤ – ١٩٦٠م

١٥/ شكري فيصل – أبو العتاهية – أشعاره وأخباره – القاهرة – دار المعارف – ١٩٧٢م

١٦ / الطبري – محمد بن جرير- تاريخ الملوك والرسل – تحقيق محمد أبو الفضل – القاهرة ، دار المعارف – ط١ – ١٩٦٦م ج٨

١٧/ عبد اللطيف شرارة- أبو العتاهية شاعر الزهد والحب الخائب- بيروت- دار الشرق الجديد – ١٩٦٢م

١٨/ عبد الله بن المعتز- طبقات الشعراء- تحقيق عبد الستار سراج- القاهرة- دار المعارف- ١٩٥٦م .

١٩/ ابن العماد الحنبلي – أبي الفلاح عبد الحي – شذرات الذهب في أخبار من ذهب – بيروت المكتبة التجارية للنشر– ومكتبة القدس –١٣٥١هـ

٢٠/ / أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – دار إحياء التراث العربي – بيروت– (د.ت)

٢١/ ابن قتيبة – أبو محمد عبد الله بن مسلم – الشعر والشعراء – تحقيق أحمد محمد شاكر– الطبعة الثانية – القاهرة ، دار المعارف – ١٩٦٧م

٢٣/ كثير– أبو الفداء عماد الدين إسماعيل – البداية والنهاية – مطبعة السعادة – د.ت.

٢٤/ مجيد طراد – ديوان أبي العتاهية – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ٢٠٠٦م .

٢٥/ محمد جابر عبد العال – حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق أبان العصر العباسي – دار المعارف، القاهرة – ط٢ – ١٩٦٧م

٢٦/ مصطفى الدش – أبو العتاهية حياته وشعره – القاهرة ، دار الكتاب العربي – ١٩٦٨م

٢٧/ محمد الكفراوي– صورة الزهد عند أبي العتاهية– دار النهضة – القاهرة– ١٩٧٢م

٢٨/ المرزباني – أبي عبد الله محمد بن عمران – الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء – تحقيق محمد حسين شمس الدين – لبنان – بيروت – دار الكتاب العلمية –١٩٩٥م

٢٩/ ابن منظور المصري – لسان العرب – القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة –د.ت.

٣٠/ الموسوعة الشعرية – الإصدارة الثالثة – ٢٠٠١م .

٣١/ اليافعي – إسماعيل بن هشام– مرآة الجنان وعبرة اليقظان – بيروت– ج٢–١٩٧٠م .

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١	ملخص	٥٥٤٢
٢	Summary	٥٥٤٤
٣	مقدمة	٥٥٤٦
٤	الفصل الأول	٥٥٥٠
٥	المبحث الأول	٥٥٥٠
٦	المبحث الثاني	٥٥٦٨
٧	الفصل الثاني	٥٥٧٩
٨	المبحث الأول	٥٥٧٩
٩	المبحث الثاني	٥٥٩٢
١٠	الخاتمة	٥٦٠٠
١١	المصادر والمراجع .	٥٦٠٢
١٢	فهرس الموضوعات	٥٦٠٦